دكتور أحمد علي المجدوب

المستوطنات اليهودية

على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

Bibliotheca Alexandrina
0132974

الدار المصرية اللبنانية

المستوطنات اليهودية

على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

الناشـر : الدار المصرية اللبنانية
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع: ١٨٢٦ / ١٩٩٢
الترقيم الدولى: 5 - 74 - 5083 - 977
طبع : المطبعة الغنية
العنوان: ٢٢ ش الشقفاتية ـ متفرع من الساحه ـ عابدين
تليفون: ٣٩١١٨٦٢
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى: ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م
الطبعة الثانية : ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦م
تصميم الغلاف: محمد قطب

المستوطنات اليهودية

على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

909.049
24053
م ج د
م

9076

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

دكتور
أحمد علي المجدوب

الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية
رقم التصنيف 297.292
٢١م
رقم التسجيل : ١٠٦٧٤

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

مقدمة

لا أشك فى أن كثيرين ممن قرءوا عنوان هذا الكتاب قد اعترتهم الدهشة وتساءلوا : هل كانت توجد مستوطنات يهودية على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ . وإذا كانت قد وجدت فأين كان مكانها ؟ ومتى أقيمت ؟ وكيف استؤصلت ؟ ولماذا استؤصلت ؟

والواقع أن الأمر فيما يتعلق بموضوع المستوطنات اليهودية فى الحجاز يشوبه الكثير من الإبهام وعدم الوضوح ، باعتباره جزءاً من تاريخنا العربى والإسلامى ؛ ولذلك فأنا لا أستنكر أن يتساءل الناس على هذا النحو ؛ لأننى كنت ـــ إلى عهد قريب ـــ مثلهم لا أعرف إلا القليل عن هذا الموضوع ، على الرغم من كثرة قراءاتى فى كتب التاريخ والسيرة والتفسير ، إلى أن شرعت فى إعداد دراسة أرد بها على مزاعم بعض المستشرقين والمؤرخين الغربيين بخصوص زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة صفية النضيرية ، التى كانت يهودية قبل أن يتزوجها ، مما فرض علىَّ أن أبحث فى غزوة خيبر وماحدث فيها ؛ نظرا لأن السيدة صفية كانت قد وقعت فى السبى فى هذه الغزوة . فإذا بى أجد نفسى مضطرا إلى العودة إلى ماقبل ذلك ، إلى غزوة بنى النضير ، قبيلة السيدة صفية التى كان أبوها زعيما لها وقائدا . وقادتنى غزوة بنى النضير إلى الوراء لأدرس غزوة بنى قينقاع اليهود أيضا ، ثم إلى الأمام لأدرس غزوة بنى قريظة ، ومعها غزوة الأحزاب .

وهكذا وجدت نفسى غارقا فى الموضوع الأوسع ، موضوع الوجود اليهودى فى الحجاز ، بل فى الجزيرة العربية كلها . ومضيت أبحث فى الكيفية التى دخلوا بها ، ومتى ؟ وكم كان عددهم ؟ وأين استوطنوا ؟ وماذا فعلوا بأصحاب البلاد ؟ ليقودنى البحث إلى حقائق غريبة وعجيبة فى آن واحد ، منها أن اليهود لم يكونوا فى المدينة وخيبر فقط ، بل كانوا فى مناطق أخرى كثيرة تربو على العشر ؛ ذلك لأنهم — كما هو شأنهم دائما — ما إن اجتازوا حدود الجزيرة العربية مع فلسطين حتى انتشروا فى الحجاز بطريقة سرطانية ، ينشئون المستوطنات فى المواقع الاستراتيجية ، وذات الأهمية الاقتصادية فى آن واحد ، ويقيمون الحصون القوية ويقتلون السكان العرب أو يطردونهم أو يسخِّرونهم لأداء الأعمال الشاقة نظير أجور تافهة .

ولم أجد فى كتب التاريخ ذِكراً للطريقة التى دخل بها اليهود إلى الحجاز ، وهل دخلوه عنوة وبواسطة الحرب ، أو دخلوه متسللين مهاجرين بعد أن أعمل الرومان فيهم سيوفهم فقتلوا منهم مئات الألوف ، فاستدروا عطف العرب بالدموع والتوسلات ، كما فعلوا فى فلسطين بعد ذلك بألفى عام ؟.

أما الذى وجدته بشأن تصرفاتهم بعد أن استقروا واطمأنوا ، فيشبه إلى حد بعيد ما فعله اليهود ويفعلونه فى فلسطين فى الأربعينيات من هذا القرن وإلى الآن ، مما جعلنى أقول : ما أشبه الليلة بالبارحة !! وهذا صحيح : ففى البارحة التى يفصلنا عنها قرابة العشرين قرنا استغل اليهود اختلاف العرب وتناحرهم وتفرقهم ،

ففرضوا سيطرتهم عليهم وأخضعوهم لهم واستغلوهم ، بل وأذلوهم ، كما سوف نرى . واليوم يفعلون نفس الشيء ، إلى أن قدر للبارحة أن تنتهى ، وندعو الله العلى القدير أن ينتهى اليوم كما انتهت البارحة . وذلك لن يكون إلا إذا فعلنا كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذى لم ترهبه دعايات اليهود ولم يُخفْه استظلالهم بحماية إحدى الدولتين العظميين فى زمنه ، وهى دولة فارس ، ولم يقف مكتوف اليدين أمام محاولات المنافقين والانتهازيين ، ولم ترهبه قوة اليهود الحربية ، وإنما اعتمد على الله ، وتحت قيادة واحدة ، ومضى فى طريقه بإرادة قوية وعزيمة لا تلين ؛ ليستأصل المستوطنات اليهودية الواحدة بعد الأخرى دون أن يساوم أو يفاوض فيوقع نفسه فى حبائل اليهود ويتوه فى دروب ألاعيبهم .

والواقع أن الجهد الذى بذلته فى هذا الكتاب لم يخرج عن حدود جمع ماتناثر فى كتب التاريخ والتفسير من معلومات تتعلق بموضوعنا ، والتنسيق بينها ، وتحليل وتفسير ما وجدته منها بحاجة إلى تحليل أو إلى تفسير ، وتمحيص ما غمض أو استبهم ، واستيفاء مانقص ، وبسط ماأجمل ، وبخاصة ماكانت له علاقة بالغزوات والمعارك التى لم يحظ الجانب الهام منها ، وهو النشاط العسكرى ، باهتمام المؤرخين المسلمين ، ناهيك عن المفسرين ، فجاء الكلام بشأنها ناقصا إلى درجة معيبة جعلته يبدو كما لو كان نزهة أو هجمة عشوائية تسودها الفوضى وينقصها التخطيط .

ليس ذلك وحسب ، بل إن كتب التاريخ الإسلامى تركز بشكل

واضح على المرحلة المكية من الدعوة بشكل يوحى للقارىء أن معاناة الرسول صلى الله عليه وسلم قد انتهت أو كادت بهجرته إلى المدينة . والغريب فى الأمر أن وسائل الإعلام ـــ وبالذات الإذاعة المسموعة والمرئية ـــ تركز على هذه المرحلة ، وتظهر المرحلة المدنية كما لو كانت مرحلة استرخاء وراحة وطمأنينة ، مما جعل الغالبية العظمى منا نحن المسلمين نظن أنه بالهجرة إلى المدينة خفت متاعب المسلمين بدرجة كبيرة وأحسوا بالطمأنينة والأمن بعد أن أصبحوا بين ظَهْرانَى الأنصار ، فى حين أن الحقيقة خلاف ذلك تماما : ففى المدينة واجه الرسول صلى الله عليه وسلم متاعب من نوع جديد ، كما أن إحساسه بالطمأنينة والأمن كان شبه منعدم لأسباب عديدة : منها أن الذين أسلموا من الأوس والخزرج كان عددهم ضئيلا للغاية بالمقارنة مع الأعداد الكبيرة للقبيلتين ، كذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن ليأمن نشوب الصراع فى أى وقت بين هاتين القبيلتين ، وأن يذهب كل مابذله من أجل القضاء على أسباب الخلاف بينهما سُدًى ، وأكبر دليل على صحة هذا حالنا الآن عرب القرن العشرين ، فإننا مانكاد نلتقى إلا وسرعان مانفترق ، مما يجعل جمع الرسول لكلمة العرب معجزة بحق ، ندعو الله أن تتكرر .

كذلك فإنه كان يوجد بين الذين أسلموا من أفراد القبيلتين كثير من المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام لسبب أو لآخر ، فى حين أنهم يضمرون الكفر ، أو على الأقل يشكّون فى صدق النبوة ، وكان على رأس هؤلاء عبد الله بن أُبَىٍّ بن سلول . ومن الأسباب أيضا ، بل

على رأسها ، اليهود الذين أقاموا فى « يثرب » منذ زمن بعيد وكانت لهم بها ثلاث قبائل كبرى هى بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ، والتى كان عدد أفرادها يتجاوز الخمسة عشر ألف فرد ، منهم حوالى الألفين والخمسمائة من المقاتلين الأشداء ، ولهم حصون منيعة وسلاح وعتاد جيدان ، فضلا عن الثروة الطائلة والتأثير الشديد فى العرب ، وماكان لهم من تحالفات مع الأوس والخزرج على السواء .

وفضلا عن كل ذلك فقد كانت قريش ومعها القبائل العربية الأخرى لا تكف عن مهاجمة المدينة ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يواجه خطرا أو تهديدا مزدوجا ، من الداخل ومن الخارج . وعادة فإن التهديد الخارجى يكون أهون من التهديد الداخلى ؛ حيث إنه يمكن رصد الأول وتوقعه قبل وقوعه واتخاذ مايلزم لمواجهته ، فى حين أن الثانى أى الداخلى يأتى بغتة ، ويكون أخطر لأنه يؤدى إلى شق الجبهة الداخلية ، وبالتالى إصابتها بالضعف فالانهيار . فما بالنا إذا تزامن التهديدان ، الخارجى والداخلى ، فأحدق الأول من الخارج ، وتفجر الثانى من الداخل ، إنها الكارثة التى لا يعلم مداها إلا الله . ومع ذلك يزعم بعض من لا عقل لهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتزوج ليستمتع بالنساء !! وكأن كل ماذكرناه من أخطار لاوجود لها ، وكأن الرجل ليس رسولا يتلقى الوحى فيحفظ عنه ثم يُعلِّم أتباعه ، ويدعو من لم يتبعوه بعد ، وينظم شئون الجماعة ، ويشرف على مصالحها ، ويتعهدها بالنصح والتوجيه والإرشاد . ولو أنه كان كما يقولون مااستطاع أن ينجح فى أى عمل قام به ، ولعجز

عن استئصال المستوطنات اليهودية ، وللجأ إلى التوسل إلى هذه الدولة أو إلى تلك : لكى تفعل له شيئا يحفظ به ماء وجهه .

وهكذا نرى أن أحداث الماضى ليست مُنْبَتَّةَ الصلة بالحاضر الذى نعيشه ، وإنما هى مرتبطة به أشد الارتباط ، فهاهم اليهود أعداء الله وأعداء الإسلام يعاودون الكرة ، فيعيدون إقامة مستوطناتهم فى فلسطين بمساعدة الغرب الصليبى ، ويسعون إلى إقامة دولة كبرى تمتد من النيل إلى الفرات ، يكون المسلمون فيها عبيدا لهم وأتباعا أذلاء ، وتساعدهم الدول الصليبية نكاية فى الإسلام وأهله . « فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » [١]

ولعل الذين هللوا لمعاهدة « كمب ديفيد » واعتبروها نصرا لـ (مصر) قد أدركوا أن الأمر لم يكن كذلك ، وإنما هو نذير بالهزيمة الساحقة الماحقة التى يدبر اليهود وغيرهم لإنزالها بنا جميعا مصريين وغير مصريين ؛ ذلك لأن اليهود ــ ومن ورائهم الغرب الصليبى ــ لن يهدأ لهم بال أو يطمئن خاطر إلا بعد أن يقضوا على الإسلام ويجعلوا من المسلمين قطيعا ذليلا تقوده إسرائيل ، التى سيمتد ملكها من النيل إلى الفرات تنفيذا للنبوءة التى يؤمن بها الصليبيون أيضا مثلما يؤمن بها اليهود ، ولِمَ لا وكتابهم المقدس يتكون من التوراة والإنجيل معا ؟

---

(١) تكوين ، الإصحاح ١٥ ، فقرة ١٨

وليس بخافٍ على أحد أن القضاء على الإسلام يقتضى القضاء على مقدساته ، وفى مقدمتها الكعبة ، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، والمسجد الأقصى فى القدس . ولقد بدأ اليهود بالأخير فاستولوا عليه عام ١٩٦٧ تحت بصر المسلمين وسمعهم . وأخذوا منذ ذلك الحين يقومون بأعمال تخريبية ضد المسجد الأقصى ، فأشعلوا فيه النار مرات ، وحفروا تحته ، ومايزالون يحفرون ، وكل ذلك بقصد هدمه وإقامة معبدهم مكانه . وإذا كانت بعض الاعتبارات قد حالت دون ذلك ، فى الوقت الراهن ، فإن هذه الاعتبارات سوف تضعف ثم تزول فى وقت قريب ، وبالتالى يقدمون على هدم المسجد الأقصى دون أن يواجهوا مقاومة يعتد بها من جانب المسلمين الذين ستكون جماهيرهم مشغولة بمتابعة إحدى مباريات كرة القدم ، أو منصرفة إلى متابعة أخبار إحدى الراقصات .

أما الحكومات العربية والإسلامية العظيمة فلا بأس من أن تصدر بيانات تشجب فيها ماحدث ، وتستنجد بالحكومات الصديقة فى الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وألمانيا والاتحاد السوفيتى ؛ لكى تتدخل وتمنع إسرائيل الكبرى من هدم المسجد ، وطبعا لن تُخيِّب هذه الحكومات ظن أصدقائها فيها ، ولن تتركهم ليفتضح أمرهم أمام شعوبهم ، وسوف تحتج بدورها وتشجب فى حين أن أيديها ممتدة من تحت الطاولة تصافح أيدى اليهود ، وتشد عليها ، تأييدا وتشجيعا ، بل وتهنئة بتحقق النبوءة وقيام الهيكل .

وبعد ذلك سيأتى الدور على المسجد النبوى بالمدينة ، التى يزعم

اليهود أن لهم حقوقا فيها لاتقل عن حقوقهم فى فلسطين والشام والعراق ومصر . فقد أقاموا فيها زمنا طويلا قبل الإسلام ، وكانت لهم فيها مساكن ومزارع وحصون وأموال استولى عليها المسلمون ، ولا نستبعد أن يخرجوا علينا ، فى الوقت المناسب ، بادعاءات تقول إن المسجد النبوى أقيم على أراض كانت مملوكة لهم ، أو كان عليها بعض معابدهم ، أو مقدساتهم التى غطتها الرمال ، ويكرّروا مايفعلونه الآن فى القدس من التنقيب تحت المسجد الأقصى توطئة لهدمه . وسوف يفعلون ذلك بسهولة أكبر ، حيث لن يكون للعرب الأشاوس أى وزن أو قيمة بعد نزع سلاحهم والقضاء على قوتهم بتفتيتهم وإضرام نار العداء بينهم وجعلهم يخافون من بعضهم البعض ، ويطمئنون للغرب ولإسرائيل .

وأخيرا وليس آخرا ، أوجه كلمة للواهمين من الإخوة المصريين ، الذين يظنون أن اليهود قد تركوا سيناء نهائيا ، فأقول لهم : أفيقوا من وهمكم قبل أن تنتبهوا فجأة على قعقعة المدرعات وأزيز الطائرات الإسرائيلية على أرض سيناء وفى سمائها ، وعندئذ تمطون شفاهكم فى بلاهة وتزعمون أنكم خدعتم فيما قيل لكم وماسمعتموه ، وهو ماقلتموه من قبل ؛ لأنكم لاتقرءون التاريخ ولاتعملون عقولكم ، وإنما ترددون فى ثقة الجهال مايصل إلى أسماعكم من كلام المنافقين والكذابين دون أن تُمَحِّصوه ، أو لأنكم تجدون فيما حدث مافيه مصلحة لكم . إن سيناء ياسادة لا تقل أهمية وقداسة بالنسبة لليهود عن هيكل سليمان والقدس ، إن لم تكن تزيد ، فعلى جبلها قابل

موسى الرب حيث أعطاه العهد لبنى إسرائيل (شعبه المختار) ، كما نزل الرب على الجبل أمام عيون بنى إسرائيل « لأنه فى اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء » [٢].

وتصور التوراة ماحدث فى اليوم الثالث فتقول « وحدث فى اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صار رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة ، وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله ، فوقفوا فى أسفل الجبل ، وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار ، وصعد دخان كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جدا ، فكان صوت البوق يزداد اشتدادا جدا وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت ، ونزل الرب على جبل بسيناء إلى رأس الجبل ، ودعا الله موسى إلى رأس الجبل فصعد موسى [٣].

كذلك فقد ظل موسى عليه السلام يُذكِّر اليهود ، إلى آخر لحظة فى حياته بما لجبل سيناء ولسيناء كلها من قداسة « وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى إسرائيل قبل موته . فقال ، جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران » [٤]. فهل يمكن لعاقل أن يقول إنهم سيتركونها ؟

---

(٢) خروج ، إصحاح ١٩ ، فقرة ١١
(٣) خروج ، إصحاح ١٩ ، فقرات ١٦ - ٢١
(٤) تثنية ، إصحاح ٣٣ ، فقرة ١

كذلك فقد أصروا على أن تتضمن اتفاقية « كمب ديفيد » نصوصا تعترف لهم ببعض الحقوق التى تضمن لهم عدم انقطاع صلتهم بسيناء . وهم يحرصون أشد الحرص على زيارتها فى كل عام ؛ لكى يعمقوا الإحساس بالانتماء إليها ، ويؤكدوا ارتباطهم بها . ليس ذلك وحسب ، بل إنهم يروجون أكاذيب أخرى بشأن أماكن أخرى يزعمون أن لهم حقوقا فيها ، بعضها يقع فى الوجه البحرى ، والبعض الآخر يقع فى الوجه القبلى . من ذلك ـــ وعلى سبيل المثال لا الحصر ـــ قولهم : إنه كانت لهم مستوطنة دائمة ومستقرة فى جزيرة « الفنتين » عند أسوان ، وهو ماذكرته دائرة المعارف الأمريكية أو بالأحرى كاتبها اليهودى اللئيم الذى أرجع تاريخ إنشاء هذه المستوطنة إلى زمن الملك البابلى « نبوئذ نصر » الذى كان قد نفى اليهود من فلسطين فرحل بعضهم إلى مصر ، وكان بصحبتهم نبى لهم يدعى « جيريميا » . وأنهم ظلوا يقيمون بهذه المستوطنة من القرن السادس قبل الميلاد إلى أن حدث ماأسماه الكاتب بالخروج الأخير من مصر فى الفترة مابين عام ١٩٤٨م وعام ١٩٧٠م . وأن نبيهم « جيريميا » مدفون بالجزيرة أى أنها ، هى الأخرى ، مكان مقدس عندهم !!

وهكذا لن تفلت دولة من إدعاءات اليهود بوجود حقوق لهم فى جزء أو أكثر من أجزائها حتى هذه الدول الصليبية التى تقف الآن إلى جانب إسرائيل ضد العرب والمسلمين لن تفلت هى الأخرى ، كل مافى الأمر أن الوقت لم يحن بعد لخروج إسرائيل عليها بادعاءاتها ، ويوم تقوم إسرائيل الكبرى التى تمتد من النيل إلى الفرات ، بفضل تخاذل العرب وتهالكهم على الدنيا ، وبيعهم للآخرة ، وتخليهم عن

أعظم ميراث ورثته أمة من الأمم ـــ فسوف يكون الوقت قد حان بالنسبة لإسرائيل للانتقام من الغرب الذى وقف إلى جانبها وأيدها وأمدها بالسلاح لتفتك بنا .

لقد بلغت ، **اللهم** فاشهد، والله الموفق

المؤلــف

الفصل الأول

تاريخ المستوطنات اليهودية في الحجاز

تاريــخ المستوطنــات اليهــوديــة فــى الحجــاز

قبل أن نبحث فى تاريخ المستوطنات اليهودية فى الحجاز قد يكون من المهم معرفة من هم اليهود ؟ ولماذا سموا كذلك ؟ وما الفرق بين الصفات : يهودى ، وعبرى ، وإسرائيلى ؟ ثم بعد ذلك نبين كيف نشأت العلاقة بين العرب واليهود ، وكيف تطورت على مدى التاريخ ؛ لما لذلك من علاقة بموضوع المستوطنات اليهودية .

العبرانيون ، اليهود ، بنو إسرائيل

يزعم اليهود ــ وبجرأة عجيبة اعتادوها ــ أنهم نسل من أسموهم بالعبرانيين وهم فرع آرامى من الساميين . وقد اختلف فى أصل الكلمة « عبرى » فقال البعض إنها نسبة إلى « عابر » أو « عبر » ، وهو اسم الجد الأعلى لإبراهيم [1] عليه السلام ، إنه لذلك أسمته التوراة إبراهيم العبرى . فقد جاء فى سفر التكوين [2] أنه لما تم أسر جماعة لوط

(١) أبرهام معناها : الأب ذو المقام العالى أو الرفيع

(٢) الإصحاح ١٤ فقرة ١٣

« أتى من نجا وأخبر إبرام العبرانى » بوقوع لوط فى الأسر . وفى سفر الخروج [٣] قال موسى وهارون لفرعون « إله العبرانيين قد التقانا » . وتكرر ذلك فى الإصحاح السابع فقرة ١٦ عندما قال موسى لفرعون « أنا الرب إله العبرانيين أرسلنى إليك قائلا أطلق شعبى ليعبدونى فى البرية » . كذلك تكرر ذكر العبرانيين فى مواقع أخرى .

وهكذا يكون وصف العبرى الذى أطلق على إبراهيم قد انتقل إلى نسله أو إن شئنا الدقة إلى نسل حفيده يعقوب دون بقية نسله من أبنائه وأحفاده الآخرين ، وذلك على الرغم مما هو معروف من أن اسم الجد الأعلى أو صفته تنتقل إلى كل أحفاده ونسله دون تمييز .

ولقد كان لإبراهيم عليه السلام أبناء آخرون غير إسحاق [٤] وأحفاد آخرون غير يعقوب [٥] بن إسحاق ، فالابن الأكبر لإبراهيم هو إسماعيل [٦] الذى ولدته له السيدة هاجر . كذلك كان له أبناء آخرون ، حسب ماجاء فى التوراة ذاتها : ففى سفر التكوين أن إبراهيم عليه السلام تزوج بعد وفاة السيدة سارة بامرأة اسمها « قطورة » ولدت له ستة أبناء ذكور ، هم زمران ، ويقشان ، ومدان ، ومديان ، ويشباق ، وشوحا . وأن هؤلاء الأبناء تزوجوا وأنجبوا ، فولد ليقشان شبا وددان ، ولمديان ولد عنية وعفر وحنوك وابيداع والدعه . كذلك فإن ددان بن يقشان تزوج وأنجب أشوريم ولطوشيم ولأميم . ومعنى هذا أن بنى الأعمام ليسوا أبناء إسماعيل

(٣) الإصحاح خمسة فقرة ٣ .
(٤) معناها : ليبتسم إيل
(٥) معناها : ليحفظ إيل
(٦) معناها : ليسمع إيل

وإسحاق فقط ، بل وأبناء هؤلاء الستة أيضا فهم إخوة لإسماعيل وإسحاق .

كذلك فإن التوراة أيضا ذكرت أنه كان لإسحاق ابن آخر هو « عيسو » توءم يعقوب الذى أنجب عددا كبيرا من الأبناء . فلماذا استأثر أبناء يعقوب وأحفاده دون هؤلاء جميعا بوصف العبرانيين ، وهو اسم الجد الأعلى لإبراهيم ، كما يقولون

وهناك رأى آخر يذهب إلى أن « عبرانيين » هو وصف أطلق على عشيرة إبراهيم التى هاجرت معه من موطنهم فى « أور » الكلدانيين ، فعبرت الفرات فى طريقها إلى « كنعان » فى فلسطين ، وأنه فى هذه الأثناء تعرضت لأخطار أنجاها الله منها ، ثم تلا ذلك إعطاؤه العهد لإبراهيم . أى أنهم سموا « عبرانيين » لأنهم عبروا الفرات .

وهذا التفسير لأصل كلمة « عبرانيين » ينطبق عليه ماقلناه فى شأن التفسير السابق بل وأكثر ؛ فطبقا للتفسير الأخير لا يكون أبناء وأحفاد ، بل ونسل إبراهيم بصفة عامة هم « العبرانيون » ، بل كل العشيرة أو القبيلة التى كانت معه عند هجرته من « أور » الكلدانيين ، وكذلك أولادهم ونسلهم جميعا . فلا ندرى لماذا استأثر نسل يعقوب بهذا الاسم دون الجميع ؟

ليس ذلك وحسب ، بل إن من يسمون بالعبرانيين ، الذين عبروا مع إبراهيم عليه السلام لما دخلوا « كنعان » تزاوجوا مع من كان يقيم بها من العناصر الأخرى .

وبعد ذلك لما فتح بنو إسرائيل « كنعان » بعد خروجهم من مصر

انضم إليهم أقاربهم الذين كانوا قد بقوا فى البلاد ولم يهاجروا إلى مصر .

وهكذا انضم الذين لم يعبروا إلى الذين عبروا ، فكانت النتيجة هى مايسمى بالشعب العبرانى الذى امتزجت فيه عروق مختلفة ومتنوعة تضم عناصر سامية وحورية وحثية وغير ذلك من العناصر غير السامية .

أما اللغة المسماة بالعبرية ، فهى ليست اللغة الأصلية للقبيلة التى هاجرت مع ابراهيم من بلاد الرافدين ، فتلك كانت لهجتها سامية قديمة ، أما اللغة التى اتخذها العبرانيون فهى الكنعانية . وقد لوحظ أن اللغة الفينيقية القديمة واللغة العبرانية القديمة ، أى التى استعارها العبرانيون ، كما هى مدونة فى العهد القديم — لاتختلفان إلا من حيث اللهجة . وتعتبر اللغة الكنعانية من بين مظاهر حضارية كنعانية أخرى كثيرة ورثها العبرانيون .

أما الرأى الأخير ، وهو أضعف الآراء ، فيذهب إلى أن « العبرانيين » هم أنفسهم « الخبيرو » الذين ورد ذكرهم فى ألواح تل العمارنة على أنهم غزوا مصر فى القرن الخامس عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد . ولكن الخبيرو كانوا شعبا شبه رعوى ، كما أن الكلمة « خبيرو » لاتدل على جماعة عرقية أو لغوية ، فضلا عن أن مجيئهم إلى مصر كان أثناء وجود أبناء يعقوب وأحفاده فيها ، ولو أن الخبيرو كانوا آراميين أيضا .

وبالنسبة لكلمة (يهود) ، فإن مصدرها هو إقليم يهودا ، فسمى من كان يقيم به من نسل يعقوب باليهود نسبة إليه ، وإن كان الإقليم قد اكتسب هذا الاسم من أبناء وأحفاد يهوذا بن يعقوب الذين أقاموا فيه . ولم يظهر هذا الاسم فى الاستعمال إلا بعد أن تم نفى اليهود إلى بابل عام ٥٨٧ ق.م فقد سمى المنفيون باليهود نسبة إلى إقليمهم ، على الرغم من أن كثيرين ممن ينتمون إلى بقية الأسباط كانوا يقيمون معهم ، فضلا عن آخرين من سكان البلاد الأصليين .

أما كلمة « إسرائيل » فهى الاسم الذى أطلقه الله على يعقوب عليه السلام . ومعناها ليحفظ إيل ، وبذلك أصبح أبناء وأحفاد إسرائيل (يعقوب) يدعون بنى إسرائيل . وهم الذين ولدوا بمصر فى الفترة الواقعة بين مجىء يعقوب وأبنائه وخروج موسى وأتباعه .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس هناك أى تطابق بين الصفات الثلاث : عبرى ، ويهودى ، وإسرائيلى . فليس كل من عبروا مع إبراهيم عليه السلام يهودا أو إسرائيليين ، وليس كل اليهود أو الإسرائيليين عبريين ، وإنما هى ألاعيب وحِيَلٌ من بنى إسرائيل أرادوا بها أن يجعلوا لأنفسهم عرقا ووطنا ودينا .

علاقة العرب باليهود

كما هو معروف ، فإن العرب واليهود أحفاد جد واحد هو إبراهيم عليه السلام فهم ــ إذن ــ أبناء عمومة ، فالجد المباشر لليهود هو إسحاق أخو إسماعيل جد العرب . وهو فى نفس الوقت عم يعقوب (إسرائيل) الذى أطلق اسمه على اليهود ليصبحوا بنى إسرائيل وإن

كانت هناك تفصيلات أخرى تتعلق بكلا الفريقين ، أى العرب واليهود ، منها أن بداية العرب لم تكن بإسماعيل وأبنائه ، فقد كان للعرب وجود بالجزيرة العربية قبل أن يذهب إليها إسماعيل مع أبيه إبراهيم عليهما السلام وأمه السيدة هاجر ، حيث شب عن الطوق وأصبح شابا فتزوج منهم وأنجب .

كما أن بداية اليهود لم تكن بإسحاق أو بيعقوب عليهما السلام ، حيث إن كليهما تزوج من الجماعات التى كانت تقيم فى الشام والعراق ، وهم بالقطع لم يكونوا إسرائيليين أو يهودا .

وعلى الرغم مما يقوله العرب من أن إسماعيل عليه السلام تزوج عربية ، حيث كان يقيم بالقرب من مكة ، فإن اليهود يزعمون أنه لما بلغ الحلم تزوج من مصر ، وهو ما ذكرته التوراة [٧]: « فكبر وسكن فى البرية وكان ينمو رامي قوس ، وسكن فى برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر » . وهذا كذب محض ؛ فإسماعيل عليه السلام لم يقم فى برية فاران التى توجد فى شبه جزيرة سيناء ، وإنما أقام فى واد غير ذى زرع ، حيث توجد الكعبة فى مكة .

والمثير للدهشة حقا هو أن التوراة كانت قد ذكرت حين حديثها عن مفارقة السيدة هاجر وابنها للمكان الذى كان يقيم فيه إبراهيم عليه السلام والسيدة سارة ـــ أنها ، أى هاجر تاهت مع ابنها فى برية بئر

---

(٧) تكوين ، الإصحاح ٢١ ، فقـرة ٢٠

سبع ، لا فى برية فاران : « فبكر إبراهيم صباحا وأخذ خبزا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعا إياهما على كتفها والولد وصرفها ، فمضت وتاهت فى برية بئر سبع ، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ، ومضت وجلست مقابله بعيدا نحو رمية قوس ؛ لأنها قالت : لا أنظر موت الولد ، فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت ، فسمع الله صوت الغلام ، ونادى ملاك الله هاجر من السماء ، وقال لها : مالك ياهاجر ؟ لاتخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو ، قومى احملى الغلام وشدى يدك به ؛ لأنى سأجعله أمة عظيمة »[8] ويبدو أن الذين حرفوا التوراة بإضافة مثل هذا الكلام إليها نسوا أنه سبق لهم أن قالوا ــ وفى نفس السفر ــ إن إسماعيل حين ختنه أبوه إبراهيم كان فى الثالثة عشرة من عمره : « وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن فى لحم غرلته ، فى ذلك اليوم عينه ختن إبرهيم إسمعيل ابنه ، وكل رجال بيته ولدان البيت والمبتاعين بالفضة من ابن الغريب ختنوا معه[9] » .

وهكذا يكون إسماعيل قد بلغ الرابعة عشرة من العمر حين أخذته أمه ورحلت ، حيث إن ذلك حدث بعد ولادة إسحاق . فكيف بالله تطرح هاجر صبيا مراهقا تحت إحدى الأشجار؟ وكيف تحمله وهو الذى لايقل عنها طولا ؟ بل كيف يبكى أصلا ومثله فى الريف أو فى البادية يعمل ويكد ويرعى أمه وإخوته ؟ إذا كان هذا غير صحيح ،

(٨) تكوين ، الإصحاح ٢٧ ، الفقرات من ١٤ إلى ١٨
(٩) تكوين ، الإصحاح ١٧ ، الفقرات من ٢٥ إلى ٢٧

فمن باب أولى ماذكرته التوراة من أن إسماعيل عاش فى برية فاران فى سيناء وتزوج وأنجب فيها أولاده الاثنى عشر ذكرا ، فالثابت أن إسماعيل أقام بالقرب من مكة وتزوج من العرب وأنجب وأنه جد مايسمى بالعرب المستعربة ، وليس مايمنع أن يكون قد تزوج فيما بعد بامرأة من مصر بلد أمه التى قد تكون استأنفت صلتها بأهلها وزارتهم وزاروها ، فقد كانت القوافل رائحة غادية بين مصر وما جاورها من بلاد .

ولقد أطلق اليهود على نسل إسماعيل اسم الإسماعيلية ، كما سنرى فيما بعد ، أما هم فلم يعرفوا باسم بنى إسرائيل إلا بعد أن أطلق الله هذا الاسم على يعقوب كما بينا ، ونحن نعرف القصة التى تصف غدر أبناء يعقوب « إسرائيل » بأخيهم يوسف وكيف ألقوه فى البئر ، وما انتهى إليه الأمر ببيعه فى مصر حيث اشتراه « العزيز » ، وما وقع له مع امرأة هذا العزيز ، وأدى إلى سجنه ، ثم تفسيره للحلم الذى رآه الملك إلى أن تعرف على إخوته وتم الصلح بينه وبينهم ، ومجىء يعقوب وأسرته إلى مصر حيث أقاموا بها .

ويقال إن هذه الأحداث وقعت أثناء حكم الهكسوس لمصر ، وهو الحكم الذى يوجد اختلاف بين العلماء بشأن المدة التى استغرقها : فهناك من يقولون : إنه دام أربعة قرون ، وهناك من يقولون إنه دام قرنين أو ثلاثة ، ويحددونه لذلك بالحقبة من القرن ١٨ إلى القرن ١٦ قبل الميلاد . فربما يكون مجيئهم فى أولها أو فى منتصفها ، فلم يعثر بعد فى آثار المصريين القدماء على مايشير إلى هذه الأحداث ، وإن كان لايوجد أدنى شك فى حدوثها .

ولقد كان عدد الذين دخلوا مصر مع يعقوب عليه السلام لايزيد بأى حال عن سبعين فردا ، بما فيهم أبناؤه الإحدى عشر وزوجاتهم وأحفاده ، وبعض الأتباع كالخدم وغيرهم . ففى التوراة : « جميع نفوس بيت يعقوب التى جاءت إلى مصر سبعون » (١٠)

وفى القرن الثالث عشر قبل الميلاد خرج بنو إسرائيل من مصر تحت قيادة موسى عليه السلام ، أى أنهم أقاموا فى مصر أربعة قرون ، وفى التوراة (١١) « **وأما إقامة بنى إسرائيل التى أقاموها فى مصر فكانت أربعمائة سنة وثلاثين سنة** » .

وفيما يتعلق بعدد من خرجوا مع موسى زعم اليهود أن عددهم كان أكثر من ستمائة ألف رجل ؛ ففى التوراة : (١٢) « **فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد ، وصعد معهم لفيف كثير أيضا مع غنم وبقر ومواش وافرة جدا** » . ويضاف إلى هؤلاء (٢٢٠٠٠) هم ذكور سبط لاوى الذين لم يدخلوا فى العدد .

وهذا معناه أن العدد الإجمالى لمن خرجوا مع موسى يزيد على المليون ونصف المليون ، وهو ما لا يمكن لعاقل أن يتصوره ؛ إذ كيف تسنى لموسى قيادة هذا العدد الهائل من البشر والخروج بهم من مصر ؟ وكيف عبر بهم البحر حين انشق ؟ وكم من الوقت دام

---

١٠ ـــ تكوين ، الإصحاح ٤٦ ، فقرة ٢٧ .

١١ ـــ خروج ، الإصحاح ١٢ ، فقرة ٤٠ .

١٢ ـــ خروج ، الإصحاح ١٢ فقرة ٣٧ ، ٣٨ .

انشقاق البحر ليمر هذا العدد الهائل، خاصة مع ماعرف من أن اليهود قد حملوا معهم ممتلكاتهم التى وضعوها على عربات ثقيلة تجرها الثيران ، ولم يتركوا شيئا للمصريين ، حتى البط والأوز ، وكل مايحتوى البيت ، حملوه معهم .

ولقد ذكرت التوراة [١٣] أن عبور البحر استغرق بضع ساعات هى مدة الليل ، « وانتقل عمود السحاب من أمامهم ووقف وراءهم ، فدخل بين عسكر المصريين وعسكر إسرائيل ، وصار السحاب والظلام وأضاء الليل ، فلم يقترب هذا إلى ذاك كل الليل ، ومد موسى يده إلى البحر ، فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل ، وجعل البحر يابسة وانشق الماء ، فدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم ، وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر ، وكان فى هزيع الصبح أن الرب أشرف على عسكر المصريين فى عمود النار والسحاب وأزعج عسكر المصريين ... فقال الرب لموسى مُدَّ يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين ، على مركباتهم وفرسانهم ، فمد موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة » .

فهل يتصور عاقل أن مليوناً ونصف المليون من البشر ، مع كل ممتلكاتهم يمكن أن يعبروا البحر من ضفة إلى ضفة فى مدة لاتزيد على

(١٣) خروج ، الإصحاح ١٤ ، الفقرات من ٢٠ إلى ٢٧ .

تسع ساعات ، أو حتى اثنتى عشرة ساعة ؟ طبعا مستحيل . ولما كنا لانشك فى واقعة انشقاق البحر وعبور موسى ومن كانوا معه ، فلم يبق إلا أن نشك فى العدد الذى ذكرته التوراة ، خاصة بعد أن أصابها التحريف الواضح بسبب عبث اليهود بها .

وقد اعترض كاتب دائرة المعارف الأمريكية على هذا التقدير المبالغ فيه جدا وقال : إنه فى أفضل الحالات ، فإن الذين خرجوا من مصر مع موسى ليسوا إلا عدداً قليلا من القبائل أو العشائر ، وإن النظرية المعقولة ، والتى تبدو مقبولة أكثر من غيرها ، هى التى تقول : إن الذين خرجوا من مصرهم نسل يوسف ثانى أصغر أبناء يعقوب . أى أن من رأي الكاتب أن بقية إخوة يوسف لم يقيموا بمصر ، وبالتالى لم تكن لهم ذرية فيها ، وإنما ظلوا يقيمون حيث كانوا .

ولكن الصحيح هو ماذكره القرآن الكريم من أن الخارجين من مصر كان منهم ذرية الأسباط كلهم (يوسف وإخوته) وهم اثنا عشر سبطا ؛ ولذلك فإنهم لما أصابهم العطش وهم فى سيناء فجّر لهم الله اثنتى عشرة عينا ، لكل سبط منهم عين . حيث يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (١٤) فلو أن الذين خرجوا هم أحفاد يوسف فقط ماكانت هناك حاجة إلى

(١٤) البقرة ٦٠

تفجير هذا العدد من العيون الذى كان السبب فيه منع الخلاف بين اليهود ودرء الصدام بين أحفاد كل سبط .

ويرى كاتب دائرة المعارف الأمريكية أن العدد الإجمالى لمن خرجوا من مصر مع موسى لم يكن يزيد على بضعة آلاف ؛ حيث إنه على الرغم من أن بنى إسرائيل مكثوا فى مصر حوالى أربعة قرون ، مما يحتمل معه أن يصل عددهم إلى المليون أو قريب منه ، غير أنه بالنظر إلى أنهم كانوا مجتمعا مغلقا يتزوج أفراده من داخله ، فقد أدى هذا إلى انخفاض معدل الإنجاب لديهم وضعف نسلهم مما رفع من معدل الوفيات بين أطفالهم . وهو ما لوحظ أيضا لدى يهود الشتات فى القرون الأخيرة ، وهم اليهود الذين أقاموا فى الدول المختلفة داخل مايسمى بالـ (جيتو) واستمروا فى التزواج فيما بينهم . ولكن منذ أن أقام اليهود دولتهم فى فلسطين السليبة أخذ معدل المواليد يزيد بشكل ملحوظ ، وأصبحت هناك أسر لديها عشرة أبناء ، بل واثنا عشر ابنا ، وهو ما لم نكن نسمع به من قبل .

كذلك فإنهم لو كانوا ــ كما زعموا ــ أكثر من مليون ونصف مليون يهودى خرجوا من مصر ، لكان بمقدور فرعون وجيشه أن يقضوا على معظمهم قبل أن يتمكنوا من عبور البحر حين انشق لهم . وكان ذلك ، كما ذكرنا ، فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، حيث إنه يعترف الآن بصفة عامة أن موسى عليه السلام عاش فى الفترة بين ١٣٥٠ و ١٢٥٠ قبل الميلاد .

وهكذا ظهر بنو إسرائيل بعد أن خرجوا من مصر ، ولم يكن لهم

إلا وجود لا يكاد يلحظه أحد ، قبل ذلك بأكثر من أربعمائة سنة . وكان أبناء عمومتهم قد استقروا هنا وهناك : أبناء عمهم إسماعيل فى الحجاز ، وأبناء عيسو عمهم المباشر ، توءم أبيهم فى المنطقة التى تجاور الحجاز من الضفة الشرقية للأردن .

وليس معروفا على وجه التحديد ما إذا كانت هناك علاقات بين إسحاق وأبنائه وأحفاده من ناحية ، وبين إسماعيل وأبنائه وأحفاده من ناحية أخرى أم لا ؟ . وإذا كانت هذه العلاقات قد وجدت فماذا كانت طبيعتها ؟ هل كانت وُدِّيَّةً أو عدائية ؟ . فالتوراة وهى المصدر الوحيد فى هذا الشأن لا تذكر شيئا عن إسماعيل بعد مجيئه ليشترك مع أخيه إسحاق فى دفن أبيهما إبراهيم عليه السلام ، فهى تقول : « ودفنه إسحق وإسمعيل ابناه فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون بن صوحر الحثى الذى أمام ممرا [١٥]» .

ولقد كان هذا هو اللقاء الأخير بين الأخوين على مايبدو ؛ حيث لم تشر التوراة إلى أن ذلك قد حدث . ولكنها ذكرت أن الابن البكر لإسحاق وهو عيسو توءم يعقوب ذهب إلى عمه إسماعيل وتزوج ابنته « محله » [١٦]التى غيرت التوراة اسمها فى موضع آخر [١٧]فجعلته « بسمة » فقالت « بسمة بنت إسماعيل أخت نبايوت » .

---

(١٥) تكوين ، الإصحاح ٢٥ فقرة ٩

وبغض النظر عن هذه الأخطاء الفاحشة ممن عبثوا بالتوراة ، فإن معنى ماذكرته أنه كانت توجد صلات بين عيسو وعمه إسماعيل . وربما يكون عيسو قد حرص على الاتصال بعمه بدافع من العاطفة ، ولكن لا شك أيضا أنه كان لموقف أبيه منه وتفضيله ليعقوب عليه ، حيث اختصه ببركته دونه ــ أثر فى تصرفه على هذا النحو حيال عمه الذى كان هو الآخر قد حرم من الإقامة مع أبيه ومن وراثته ، على الرغم من أنه كان الأكبر . ولكن لأنه كان ابن جارية فقد استبعد . وهكذا جمع الاضطهاد بين عيسو وعمه إسماعيل عليه السلام . وإن كان إسماعيل نفسه لم يساوره هذا الإحساس أبدا ؛ فقد نظر إلى أمر إبعاده هو وأمه إلى ذلك المكان المقفر باعتباره مما لامناص من تنفيذه ؛ لأنه صادر من الله ، تماما كما نظر إلى الأمر الصادر بذبحه والذى امتثل له تماما .

ولكن يبدو من عدم وجود علاقات بين أبناء يعقوب وكل من أبناء عمهم عيسو وعم أبيهم إسماعيل ، أنهم كانوا يعانون من إحساس كاذب بالتميز عليهم جميعا ، على الرغم من أن أبناء عيسو ــ على حد ماذكرته التوراة ــ صاروا ملوكا وأثرياء ، وذلك على خلاف ماحدث لأبناء يعقوب الذين عانوا الكثير ، وهو مايمكن أن يكون سببا فى حقدهم على بنى عمومتهم ، ولعلنا نذكر حقدهم وغيرتهم من أخيهم يوسف عليه السلام وتآمرهم عليه ، فمن باب أولى أبناء عمهم وعم أبيهم .

وبطبيعة الحال ، فإن انتقال يعقوب عليه السلام ومعه أبناؤه

للعيش فى مصر يحتمل أن يكون قد أدى إلى ضعف الصلات بأبناء إسماعيل ، أو انقطاعها ، بل يبدو أنها كانت مقطوعة قبل ذلك . ففيما ذكرته التوراة من أن قافلة الإسماعيليين هى التى ابتاعت يوسف من إخوته يظهر أن الفريقين كانا يتعاملان مع بعضهما البعض كغرباء ، فبعد أن ألقى أبناء يعقوب بأخيهم فى البئر « ثم جلسوا ليأكلوا طعاما فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ولاذنا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر [18] وبعد هذه الواقعة لم يرد ذكر للإسماعيليين فى التوراة ، حيث انقضت أربعة قرون أو أكثر على بنى إسرائيل فى مصر ، ثم خرجوا تحت قيادة موسى عليه السلام ليبدأ احتكاكهم من جديد بالناس خارج مصر ، ونقرأ فى التوراة أنهم اشتبكوا فى حرب مع « العماليق » « وأتى عماليق وحارب إسرائيل فى ريفيديم ، فقال موسى ليشوع انتخب لنا رجالا واخرج حارب عماليق ، وغداً أقف أنا على رأس التلة وعصا الله فى يدى ، ففعل يشوع كما قال موسى ليحارب عماليق ، ولما هزم يشوع عماليق فقال الرب لموسى اكتب هذا تذكارا فى الكتاب وضعه فى مسامع يشوع فإنى سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء ، فبنى له موسى مذبحا ودعا اسمه يهوه نسى ، وقال إن البلد على كرسى الرب ، للرب حرب مع عماليق من دور إلى دور [19]» .

---

(١٨) تكوين ، الإصحاح ٣٧ ، الفقرة ٢٥

(١٩) الخروج ، إصحاح ١٧ ، فقرة ٨ وما يليها

وهناك شبه إجماع بين المؤرخين على أن العماليق هم عرب . فجورجى زيدان يقول : إن العماليق هم أصل سائر العرب البائدة ، أو هو اسم يشملهم جميعا . ويقول : إن المؤرخين يريدون بالعمالقة قد ماء العرب ، وخصوصا أهل شمال الحجاز مما يلى جزيرة سيناء .

ويقول الدكتور حسين مؤنس فى تعليقه على جورجى زيدان : إن العماليق كانوا على أصح الآراء يسكنون جنوبى فلسطين ، ومن هنا كان العداء الشديد بينهم وبين العبرانيين ، وهذا يفسر لنا سر عداوة التوراة لهم ، وبسبب هذه العداوة كثر تردد اسم العماليق فى التوراة ، ورويت عنهم القصص ، وبالغ الناس فى أوصاف أجسامهم وضخامتها ، وجعلوهم أقدم شعوب الأرض ، وكانت لهم غارات على ماجاورهم من أراضى الرافدين ومصر ، واستقر بعضهم فيها .

ومما ورد فى التوراة توصية ، أو أمر من الله لموسى « اذكر ما فعله بك عماليق فى الطريق عند خروجك من مصر ، كيف لاقاك فى الطريق وقطع من مؤخرك كل المستضعفين وراءك وأنت كليل ومتعب ولم يخف الله ، فمتى أراحك الرب إلهك من جميع أعدائك حولك فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك نصيبا لكى تمتلكها تمحو ذكر عماليق من تحت السماء ، لاتنس [٢٠] » . وفيما بعد أطلق اليهود

---

(٢٠) تثنية ، الإصحاح ٢٥ ، الفقرات من ١٧ إلى ١٩

على العرب أسماء أخرى منها بنو قيدار ، وقيدار هو أحد أبناء إسماعيل ، كما يقولون ، وبنو المشرق ، وغير ذلك مما سوف نصادفه أثناء الدراسة . وكان موقفهم منهم دائما عدائيا ، فهم إذا لم يتوعدوهم بالحرب والانتقام الشديد والإبادة ، تنبئوا لهم بالمصائب تحل بهم ، وبالغوا فى إظهار الشماتة فيهم إذا حلت بهم : ففى القرن السادس قبل الميلاد هاجم نبوخذ نصر الحجاز وهزم العرب ـــ بنى قيدار ـــ فى البادية ، وهذا الخبر جاء فى شكل نبوءة فى سفر ارميا على الوجه الآتى : « على قيدار وممالك حاصور التى ضربها نبوخذ نصر ملك بابل ، وهكذا قال الرب قوموا احصدوا إلى قيدار ودمروا أبناء المشرق ، إنهم يأخذون أخبيتهم وغنمهم ويستولون على شققهم وجميع أدواتهم وإبلهم وينادون عليهم بالهول من كل جانب [٢١]» .

ظهور اليهود فى الجزيرة العربية

اختلفت الآراء فى شأن الوقت الذى ظهر فيه اليهود فى الجزيرة العربية ، وعلى وجه الخصوص فى المنطقة الممتدة من حدودها مع فلسطين إلى المدينة أو يثرب ، كما كانت تسمى قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها . فهناك رأى يذهب إلى أنهم جاءوا إليها أيام موسى عليه السلام (القرن الثالث عشر) قبل الميلاد . ويورد ياقوت فى معجمه قصة تتحدث عن السبب الذى من أجله جاء اليهود إلى المدينة أيام موسى فيقول : إن السبب هو أن موسى بن عمران عليه السلام ، بعث إلى الكنعانيين حين أظهره الله تعالى على فرعون

(٢١) أرميا ، الإصحاح ٤٩ ، الفقرة ٢٨

فوطىء الشام وأهلك من كان بها منهم ، ثم بعث بعثا آخر إلى العماليق بالحجاز وأمر جنوده ألا يستبقوا أحدا ممن بلغ الحلم إلا من دخل فى دينه ، فقدموا عليهم فقاتلوهم ، فأظهرهم الله عليهم فقاتلوهم وقتلوا ملكهم الأرقم وأسروا ابنا له شابا جميلا كأحسن من رُئيَ فى زمانه فضنوا به عن القتل وقالوا : نستحييه حتى نقدم به على موسى فيرى فيه رأيه ، فأقبلوا وهو معهم وقبض الله موسى قبل قدومهم ، فلما قربوا وسمع بنو إسرائيل بذلك تلقوهم وسألوهم عن أخبارهم ، فأخبروهم بما فتح الله عليهم ، قالوا : فما هذا الفتى الذى معكم ، فأخبروهم بقصته . فقالوا : إن هذه معصية منكم لمخالفتكم أمر نبيكم ، والله لا دخلتم علينا بلادنا أبدا ، فحالوا بينهم وبين الشام ، فقال ذلك الجيش : ما بلد إذ منعتم بلدكم خير لكم من البلد الذى فتحتموه وقتلتم أهله ، فارجعوا إليه ، فعادوا إليها فأقاموا بها ، فهذا كان أول سكنى اليهود الحجاز والمدينة ، ثم لحق بهم بعد ذلك بنو الكاهن بن هارون ، عليه السلام ، فكانت لهم الأموال والضياع بالسافلة ، والسافلة ماكان فى أسفل المدينة إلى أُحُد .

وهذه القصة من الإسرائيليات التى انتشرت فى كتب العرب بعد الإسلام ، دسها اليهود عليهم لكى يوهموهم بقدم وجودهم بالحجاز ، الذى يرجع إلى ماقبل هجرة الأوس والخزرج بأكثر من ثمانية عشر قرنا ، أى أنهم يقصدون أن يقولوا لهم : نحن هنا قبلكم . فما جاء فى التوراة ليس فيه شاب جميل ولا عودة للجيش إلى الحجاز .

أما الرأى الثانى فهو الذى يذهب إلى أن اليهود جاءوا إلى (يثرب) فى عهد « نبوخذ نصر » عقب إنزاله الهزيمة بمملكة يهودا عام ٥٨٦ قبل الميلاد وتدميره لهيكل سليمان عليه السلام . ففى ذلك الوقت نزح عدد كبير من اليهود إلى الجزيرة العربية حتى لا يقعوا فى أسر البابليين الذين نفوا الآلاف من اليهود إلى بابل فيما يسمى بالنفى البابلى .

وهناك رأى ثالث ، وهو الراجح ، يذهب إلى أن انتقال اليهود إلى الحجاز كان أثناء حكم الرومان لفلسطين ، وبعد ظهور المسيحية . ويذكر ياقوت قصة أخرى طريفة تتحدث عن السبب فى نزولهم المدينة ، وهو أن ملك الروم حين ظهر على بنى إسرائيل وملك الشام أراد أن يتزوج إحدى اليهوديات من أحفاد هارون ، وكان اليهود جريا على عادتهم لايزوجون بناتهم للنصارى ، فخافوا إن هم رفضوا أن ينكل الملك بهم ، فلجئوا إلى الحيلة . وذلك بأن قدموا له الهدايا ووجهوا إليه الدعوة لزيارتهم ، فلما ذهب إليهم فتكوا به وبمن معه ، ثم هربوا حتى لحقوا بالحجاز وأقاموا بها . وهذه خرافة أخرى من خرافات اليهود التى روجوا لها ليظهروا استعلاءهم على الشعوب الأخرى ، فى حين أن الحقيقة خلاف ذلك تماما ، فهم لم يتورعوا طيلة تاريخهم عن التضحية بشرف نسائهم من أجل بلوغ غاياتهم ، فقد خرجوا من بابل بعد نفيهم إليها بفضل مجهودات امرأة منهم شديدة الجمال قدموها للقائد الآشورى لتكون محظية له ، وهم الذين استغلوا الجنس فى التجسس على أعدائهم وأشاعوا الفساد والانحلال فى العالم كله ، ولو أنه صح أن ملكا رومانيا رغب فى الإصهار إليهم

لقدموا له بدل المرأة عشرات . وإنما أرادوا أن يقولوا للعرب : إننا رفضنا أن نزوج ابنتنا لملك كبير رومانى فمن باب أولى لانزوجكم بناتنا . ومع ذلك فإن فى هذه القصة جزءا صغيرا له صلة بالحقيقة وهو الجزء الخاص بزمن هجرتهم إلى الحجاز .

ذلك أنه لما أعلن اليهود التمرد على الرومان واشتبكوا معهم فى معارك انتهت بهزيمتهم ، أى هزيمة اليهود ، هرب عدد كبير منهم من وجه الرومان إلى الجزيرة العربية ، وكان ذلك فى القرنين الأول والثانى الميلاديين ، وعلى الرغم من أن بعض العلماء العرب ذكروا ذلك ، فإنهم استمروا فى ترديد أكاذيب اليهود ، فها هو الأصفهانى يقول : لما ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعا فى الشام فوطئوهم وقتلوهم ونكحوا نساءهم خرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو يهدل هاربين منهم إلى من بالحجاز لما غلبتهم الروم على الشام . وهو ماكان يقوله يهود بنو قريظة من أنهم ولوا هاربين من الشام يريدون الحجاز الذى فيه بنو إسرائيل ليسكنوا معهم ، يقصدون أنه كان بالحجاز يهود قبل الاضطهاد الرومانى ، كذلك زعموا أنهم لما غادروا الشام وجه ملك الروم فى طلبهم من يردهم ، فأعجزوا رسله وفاقوهم ، وانتهى الروم إلى « ثمد » بين الشام والحجاز فماتوا عنده عطشا ، فسمى ذلك الموقع ثمد الروم فهو معروف إلى ذلك اليوم ، كما يقول ياقوت .

والصحيح أن نزوح اليهود إلى الحجاز قد حدث مرتين : الأولى عام ٧٠م عندما شن « طيطس » الرومانى حربا على اليهود فى

فلسطين ، فاقتحم أروشليم وأعمل القتل والسلب والتدمير فيها حتى تركها قاعاصفصفا وقد ذكر المؤرخ اليهودى «يوسفيوس» أن عدد قتلى اليهود زاد على المليون بالإضافة إلى من أسرهم طيطوس ، والذين زاد عددهم على مائة ألف ، ويقول : إنه نزح عدد كبير من اليهود إلى قبرص ومصر والقيروان والحجاز ، ولم يبق منهم إلا شرذمة ضعيفة .

أما المرة الثانية فكانت عام ١٣٢ ميلادية فى عهد « هادريان » الذى كرر ماسبق أن فعله سلفه طيطوس . ويقول توماس أرنولد : إن هذا الإمبراطور نكل باليهود تنكيلا شديدا دفعهم إلى النزوح إلى الجزيرة العربية .

والملاحظ أنه لاتوجد فى المصادر اليهودية أية إشارة إلى ماكان يقوله يهود بنو النضير ، وإنما الذى ذكرته هذه المصادر أن اليهود ظهروا فى الحجاز بعد ميلاد المسيح . فقد جاء فى الموسوعة الإسلامية الميسرة أن التلمود يشير إلى أنه كان ببلاد العرب يهود فى القرون المبكرة من العصر المسيحى ، وأن هذا يعنى شمال بلاد العرب بصفة أساسية . كما أن عددهم كان كبيرا بدرجة ملحوظة .

وبطبيعة الحال ، فإن الطلائع الأولى لليهود الذين فروا من وجه الاضطهاد الرومانى لأول مرة أيام « طيطس » لم يندفعوا إلى عمق الحجاز ، من قبيل الحذر والحيطة ، فهم لا يدرون شيئا عما يمكن أن يصادفهم ، وإنما بدءوا بالاستيلاء على الواحات القريبة من الحدود واستقروا فيها ، ثم أخذوا ، بعد ذلك يتقدمون إلى الداخل ، فى أعداد

أخذت تتضاعف إلى أن بلغت أوجها فى الاضطهاد الثانى أيام « هادريان » فلحق الهاربون الجدد بمن سبقهم من إخوانهم ، الذين كانوا قد بلغوا « يثرب » ، بعد أن استولوا فى طريقهم على فدك وتبوك ومقنا وخيبر ووادى القرى وغيرها .

وغالبا ، فإن بنى النضير وبنى قريظة جاءوا فى الموجة الثانية ، أيام هادريان . ويذكر الاصفهانى أن هاتين القبيلتين ومعهم بنو يهدل جاءوا إلى يثرب أيام الاضطهاد دون أن يحدد أى اضطهاد ، ولكنه يقول : فلما قدم بنو النضير وبنو قريظة وبنو يهدل المدينة نزلوا الغابة ، فوجدوا أنها وبيه ، أى غير صحية ، فكرهوها وبعثوا رائدا أمروه أن يلتمس لهم منزلا سواها ، فخرج حتى أتى العالية وهى بطحان ومهزور : واديان من حرة على تلاع أرض عذبة بها مياه عذبة تنبت حر الشجر فرجع إليهم ، فقال : قد وجدت لكم بلدا طيبا نزها على حرة يصب فيها واديان على تلاع عذبة ومدرة طيبة فى متأخر الحرة ومدافع الشرج ، فقال : تحول القوم إليها من منزلهم ذلك ، فنزل بنو النضير ومن معهم على بطحان ، وكانت لهم إبل نواعم ، فاتخذوها أموالا ، ونزلت بنو قريظة ويهدل ومن معهم على مهزور ، فكانت لهم تلاعة وما سقى من بعاث وسموات فكان ممن يسكن المدينة ــ حين نزل بها الأوس والخزرج ــ من قبائل بنى إسرائيل بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زغورا وبنو قينقاع وبنو زيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو يهدل ، وبنو عوف ، وبنو القصيص ، فكان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود ، فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود ، وكان بنو مرانة فى موضع بنى

حارثة ، ولهم كان الأطم الذى يقال له الخال . وكان معهم من غير بني إسرائيل بطون من العرب منهم : بنو الحرمان حيّ من اليمن وبنو مرثد حيّ من بلى ، وبنو أنيف من بلى أيضا ، وبنو معاوية حيّ من بني سليم ثم من بنى الحارث بن بهثة ، وبنو الشظية حيّ من غسان .

هذا ، غير اليهود الذين أقاموا فى المستوطنات الأخرى ، ومنها خيبر وفدك ومقنا وتبوك ووادى القرى . مما يدل على أن عددهم كان كبيرا .

وترجح الموسوعة العربية الميسرة أن تكون القبيلة اليهودية التى اسمها بنو قينقاع هي.أول القبائل اليهودية وطليعتها فى غزو يثرب ، ونقول الموسوعة : إن هذه القبيلة لعبت دورا بارزا فى هجرة اليهود ، ذلك أن اسمها أطلق فى تاريخ متأخر على أحد الأسواق الرئيسية بالحى العربى ، ولكن بالتدريج أصبحت قريظة والنضير القبائل الرئيسية فى صفوف يهود المدينة . .

أما عن الكيفية التى دخل بها اليهود إلى الحجاز حيث أقاموا مستوطناتهم فإنه على الرغم من عدم وجود ذكر لها فى المصادر اليهودية ، وأيضا فى المصادر العربية ، غير أنه من السهل تصور كيفية دخولهم ، وذلك فى ضوء ماذكرته التوراة من توصيات لهم بشأن مايجب عليهم أن يفعلوه بالشعوب والقبائل التى يوقعها سوء طالعها فى طريق من كان مثلهم جبانا ، هذا إذا أخذنا بِعَيْن الاعتبار كراهيتهم المتأصلة للعرب وحقدهم عليهم . ومن تلك الوصايا أو التعاليم : « حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن

أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وإن لم تسالمك ، بل عملت معك حربا فحاصِرْها . وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل مافى المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما (٢٢)

وعلى خلاف عادة اليهود فى عصيان الله فى معظم ما أمرهم به ، نراهم يلتزمون ـــ وبدقة متناهية ـــ بما يزعمون أنه أمرهم به من إبادة الشعوب . ولْنَرَ ماذا فعلوا بمدينة بائسة اسمها عاى سقطت فى أيديهم « وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان « عاى » فى الحقل فى البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعا بحد السيف حتى فنوا أن جميع إسرائيل رجع إلى عاى وضربوها بحد السيف ، فكان جميع الذين سقطوا فى ذلك اليوم من رجال ونساء اثنى عشر ألفا ، جميع أهل عاى (٢٣) .

وفى هجومهم على مديان قالت التوراة تصف مافعلوه « فتجندوا على مديان ، كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر ، وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم .. وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع

---

(٢٢) تثنية ، الإصحاح ٢٠ الفقرات من ١١ إلى ١٨
(٢٣) يشوع ، الإصحاح ٨ ، فقرة ٢٤

بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم ، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم أتوا إلى موسى والعازار الكاهن وإلى جماعة بنى إسرائيل بالسبى والنهب والغنيمة إلى المحلة إلى عربات موآب التى على أردن أريحا [٢٤].

وهكذا وجد السكان العرب الذين كانوا يقيمون فى الواحات التى اقتحمها اليهود أنفسهم هدفا لهجوم كاسح شرس لم يبق ولم يذر ، قضى على الجميع من رجال ونساء وأطفال ودمر المساكن وأحرق الأسواق . ولم لا ؟ أليس هذا ماأوصتهم به التوراة ؟

وإذا كان قد حدث ، وترك اليهود بعض السكان أحياء ، فإن السبب فى ذلك كان حاجتهم إلى من يعمل لهم دون مقابل أو بمقابل ضئيل للغاية ، فهم ليسوا أكثر من عبيد يسخرونهم لأداء أشق الأعمال ؛ لأنهم، أى اليهود، سادة العالم، والشعوب كلها عبيد لهم « لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكى تكون له شعبا خاصًّا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » [٢٥].

وكما قلنا ، فإنهم بدءوا بأقرب المناطق إلى فلسطين مثل « مقنا » و « فدك » و « تبوك » ثم انتقلوا إلى « تيماء » فخيبر فوادى القرى لينتهوا إلى « يثرب » . وفى هذه المناطق أقاموا الحصون القوية ؛ ليحتموا بها من هجمات البدو الذين كانوا يقيمون فى الجوار ، وليس

---

(٢٤) العدد ، الإصحاح ٣١ ، الفقرات من ٧ إلى ١٢

(٢٥) تثنية ، الإصحاح ١٤ ، فقرة ٢

صحيحا ماذكرته الموسوعة الإسلامية الميسرة من أن اليهود لم يكونوا أول من أقام الحصون فى هذه المناطق ، وما استنتجته من أن السكان الذين كانوا هناك قبل ذلك لم يكونوا بَدْواً بحتا ، ولا ماذكره المستشرق المتعصب « لامنس » من أن تلك الحصون بنيت على نحو أمثالها فى اليمن . ذلك لأن عرب الحجاز ، فى الجاهلية ، لم يعرفوا من وسائل الحماية غير الأسوار يقيمونها حول المدن القليلة التى كانوا يقيمون بها ، وذلك على خلاف عرب اليمن الذين كانوا قد عرفوا الحصون بالإضافة إلى الأسوار ، والمعروف أن عرب اليمن لم يهاجروا إلى الشمال وإلى الحجاز على وجه الدقة إلا فى القرن الخامس الميلادى ، حيث يحتمل أن يكونوا قد أخذوا معهم فكرة الحصون الصغيرة التى تكلم عنها « لامنس » . أما اليهود فقد جاءوا من بلاد استخدمت الحصون منذ زمن بعيد ، بل إن اليهود أنفسهم كان لهم الكثير من الحصون فى المناطق التى تسلطوا عليها من فلسطين ، فليس غريبا أن يقيموا مثلها فى الحجاز ، وأن يجعلوها من القوة بحيث تصمد فى وجه أى هجوم يشنه البدو ، أصحاب البلاد الأصليون .

ولا تعرف إلى الآن ملابسات اعتناق بعض العرب الديانة اليهودية ، فالمعروف أن اليهود يعتبرون الموسوية حكرا عليهم لا يجوز أن يعتنقها غيرهم فهم « شعب الله المختار » فكيف سمحوا لأولئك باعتناق اليهودية ؟ ولكن الثابت أن أعدادا غير محددة منهم تهودوا ، ومن هنا جاء الخلط بين من كانوا يهودا خُلَّصا ومن كانوا غير ذلك ، فظهر فيما بعد خلاف بشأن أصل القبائل اليهودية . فهناك من يرى أنهم يهود خلص ، وهناك من يرى خلاف ذلك ، وأنهم ، وبالذات

قريظة والنضير ، فخذان من قبيلة جذام العربية تهودوا . وهو ماينفيه المستشرق « نولدكه » . وإن كان قد تأكد من الناحية التاريخية أنه كان هناك كثير من العرب الذين تهودوا . ومن الذين يرون أن الغالبية العظمى من يهود الحجاز أصلهم عرب المستشرق الروسى « بليايف » الذى دلل على ذلك بأن بعضهم أجاد الشعر فى الجاهلية ، بل ونظمه ، كما أن تنظيمهم القبلى والعشائرى لا يختلف عن التنظيم العربى .

ولكن هذا الذى ذهب إليه « بليايف » ليس صحيحا ، فليس هناك شك فى أن بعض العرب اعتنقوا اليهودية لأسباب مختلفة منها رغبتهم فى التقرب إلى اليهود باعتبارهم سادة ، ومنها أيضا ضيق البعض بعبادة الأوثان واقتناعهم بفكرة الإله الواحد التى تقوم عليها اليهودية وهؤلاء وأولئك كان عددهم قليلا .

ولكن الراجح أن قريظة والنضير وبنو قينقاع هم من اليهود الخلص ، فقد كان يطلق على القبيلتين الأوليين « الكاهنان » مما يبين أن اليهود كانوا يعرفون نسلهم ويشددون على تسلسلهم ، ونرى الشىء نفسه من أن صفية النضيرية التى تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم توصف بأنها من آل هارون ، وهو ماذكره ابن سعد فى طبقاته . كذلك فإن القرآن الكريم خاطب اليهود على أنهم بنو إسرائيل ، مما يوحى بأكبر قدر من الوضوح بأنه كان يعتبرهم السلالة الصحيحة للإسرائيليين القدماء ، وعلى ذلك لابد أنه كان هناك إلى جانب العرب الذين تهودوا ، سلالة من اليهود بالمعنى الصحيح ،

والواضح فى الحقيقة أنه لولا وجود سلالة كهذه لما كان هناك أقوام اعتنقوا اليهودية .

كذلك فقد حرص بعض المؤرخين المسلمين على وصف اليهود باعتبارهم من أسباط بنى إسرائيل ، فابن كثير يقول عن بنى قريظة إنهم من بعض أسباط بنى إسرائيل كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديما . وهو المتيقن بالنسبة ليهود خيبر أيضا ، فقد كانوا يتكلمون العبرية فيما بينهم ، فضلا عن العربية التى كانوا يتكلمون بها مع العرب ، أو أمامهم ، وذلك على خلاف العرب المتهودين الذين لم يكونوا يعرفون العبرية . وكان عدد قليل من العرب الذين لم يتهودوا يتكلمون العبرية منهم عبد الله بن عتيك قائد المجموعة الفدائية التى تطوعت لقتل أبى رافع زعيم خيبر ، وهو مايسر له الدخول إلى الحصن للقيام بمهمته .

كذلك فإن اليهود كانوا يكتبون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالعبرية ، وليس بالعربية ، فكان يرد عليهم بالعبرية أيضا . فقد أخرج الترمذى عن زيد بن ثابت أنه قال : أمرنى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن أتعلم كتاب يهود ، وقال : وإنى والله ماآمن يهود على كتابى . قال فما مر بى نصف شهر حتى تعلمته له قال : فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم [٢٦]. وهذا دليل آخر على أنهم كانوا يهودا ، ولم يكونوا عربا تهودوا .

---

(٢٦) جامع الترمذى – باب فى تعليم السريانية من أبواب الاستئذان والأدب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما يهود اليمن ، فإن الثابت أنهم عرب تهودوا . وتذكر الروايات العربية وكذلك المدونات اليونانية والرومانية والحبشية القديمة أن ملكا من ملوك حمير اسمه « تبان أسعد أبو كرب » مرّ في إحدى غزواته بيثرب ، فجاءه حبران من أحبار اليهود فتكلما معه ، فأعجب بهما واتبع دينهما ، وأخذهما معه إلى اليمن ودعا قومه إلى اعتناق اليهودية فأجابوه ، وأن ذلك كان على مايظن في القرن الخامس الميلادى . ويفسر البعض اعتناق عرب اليمن لليهودية بأنه كان نوعا من التحدى للدولة الأكسومية في الحبشة التى كانت تساند البيزنطيين ، الذين كانوا بدورهم يساندون سكان واحة نجران الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية ، وأخذوا يعملون على نشر النفوذ البيزنطى ، واستطاعوا بواسطة الأحباش وبمعونتهم أن يضمنوا للتجار البيزنطيين وبحارة السفن الأمان في طريقهم إلى الهند .

ولكن لِجَواد على رأى مخالف لما قيل من أن أسعد كامل أبو كرب اصطحب حبرين يهوديين ، ويقول : إنه ليس هناك دليل على أنه أول من تهود من ملوك اليمن ، وإنما الثابت أن هذا الملك كان يتعبد لإله يسمى ذو سموت أو إله السماء .

كذلك فإن الدكتور حسين مؤنس يقول في تعليقه على كتاب العرب قبل الإسلام لجورجى زيدان : إنه لم يرد فيما ذكره مؤرخو الرومان أن ملك حمير ــ عندما غزا الأحباش اليمن كان يهوديا وإن بروكوبيوس اكتفى بالقول بأن النجاشى كان نصرانيا ، وإنه بلغه أن الحميريين كانوا يضطهدون النصارى ويعذبونهم ؛ ولذلك أرسل

أسطولا استولى على أرض حمير وأقام عليها ملكا حميريا نصرانيا ، وذكر أن بعض الحميريين كانوا على اليهودية ، أما بقيتهم فكانوا وثنيين على مذهب الهلينيين . أما الرواية الحبشية فتذهب إلى أن معظم أهل سبأ كانوا وثنيين ، وأن بعضهم كان يهوديا ، وأن اليهودية دخلت اليمن بعد تشتت اليهود عقب قضاء الرومان على دولة إسرائيل ، وهدم الإمبراطور طيطوس لمعبد سليمان فى أورشليم . والمفهوم أن اليهودية دخلت اليمن عن طريق الحجاز .

وبدخول اليهودية إلى اليمن بدأ النزاع بين اليهود والمسيحيين ، ثم ما لبث أن اشتد وأخذ كلا الفريقين يكيد للآخر ، ومما ضاعف من كراهية اليهود للنصارى ماكان يصل إلى أسماعهم من أخبار الاضطهاد الذى أنزله الرومان بإخوانهم فى مصر والشام ، إلى أن كان عهد الملك « ذى نواس » فبلغ اضطهاد النصارى أشده وتمثل فى حادثة الأخدود التى ذكرها القرآن الكريم ، حيث وضع هذا الملك النصارى فى أخدود أشعل فيه النار فأحرقهم . ودفعت هذه الحادثة الأحباش إلى غزو اليمن بحجة الدفاع عن النصارى ، فقضوا على الدولة الحميرية ، وضربوا اليهود ضربة شديدة حتى أفنوهم ، أو كادوا .

وفضلا عن الحجاز واليمن فقد كان هناك يهود فى العراق ممن تخلفوا بعد أن سمح قورش لليهود بالعودة إلى فلسطين عقب سقوط بابل ، وقد انضم إلى هؤلاء الذين تخلفوا آخرون ممن فروا من الاضطهاد الرومانى . وكما هو معروف عن اليهود فإن جماعاتهم هذه كلها كانت

على اتصال ببعضها البعض ، فلم يكن يهود يثرب معزولين عن يهود تيماء أو خيبر ، ولا هؤلاء كانوا منقطعين عن يهود العراق ومصر والشام . وقد يتساءل البعض عن السبب الذى جعل اليهود يختارون مناطق مثل وادى القرى ويثرب وتيماء وتبوك ومقنا فى الحجاز للإقامة فيها دون غيرها ، كما قد يتساءلون عما إذا كانت هذه الأماكن قد عرفت فى التاريخ قبل أن ينتقل اليهود إليها أم أنهم هم الذين أدخلوها التاريخ وجعلوا لها أهمية ، وللإجابة عن هذه التساؤلات نبدأ بيثرب ، ثم نتبعها بالمناطق الأخرى .

يثرب ، أو المدينة :

اختلفت الآراء بشأن أصل اسم يثرب ، ومن هذه الآراء ما قاله المسعودى فى مروج الذهب أن يثرب الذى أطلق على المدينة قديما أصله اسم رجل يدعى يثرب بن قاتبة بن مهليل بن إرم بن عبيل ، نزل بالمدينة هو وولده ومن تبعه ، فسميت به يثرب ، فهلك هؤلاء أيضا ببعض غوائل الدهر وآفاته . أما ابن منظور فله رأى آخر ، وهو أن يثرب من ثرب ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى أن يقال للمدينة يثرب ، وسماها طيبة ، كأنه كره ثرب ؛ لأنه فساد عند العرب . وسواء كان أصل الاسم هو هذا أو ذاك ، فإن الثابت فى الحالين أن العرب هم أول من أقام فى هذه المنطقة وعمرها وأطلقوا عليها الاسم الذى عرفها به الناس ، وهذا منطقى ؛ فهى تقع فى بلادهم ، فى حين أن اليهود طرءوا عليها فى زمن لاحق .

أما لماذا استوطن اليهود يثرب فلأنها تقع بواحة وفيرة المياه ، يزرع بها الكثير من الفواكه والحبوب ، فضلا عن موقعها الاستراتيجى الهام ، فهى تقوم فى سهل ينحدر طفيفا نحو الشمال ، ويحدها من الشمال والغرب جبل أحد وجبل عير ، علي بعد حوالى أربعة أميال ، وهما نتوءان خارجيان من السلسلة التى يتكون منها الحد الفاصل بين مرتفعات بلاد العرب والأرض الساحلية المنخفضة (تهامة) .

ويحد السهل من الغرب والشرق حرتان [٢٧] أو لابتان وهما مناطق جرداء مفروشة بالبازلت الأسود ، ولكن الحرتان الشرقيتان تقعان على مسافة أبعد ، وبينهما وبين المدينة قطع أوفر خصبا ، بحيث إن الحد الشرقى للسهل يتكون فى الحقيقة من صف من تلال سوداء منفخضة ، وفى الجنوب يمتد السهل إلى أبعد ما يصل إليه البصر .

والصورة التى يكونها المرء فى خياله عند قراءته لما كتبه المؤرخون وأصحاب كتب السيرة تظهر فيها المدينة (يثرب) كما لو كانت أحياء يقيم اليهود فى بعضها ، ويقيم العرب فى البعض الآخر . وربما ساعد على رسم الصورة على هذا النحو ماهو شائع اليوم من إطلاق وصف الحى على أجزاء من المدن لايفصلها عن بعضها سوى طريق أو حتى حارة ضيقة . فى حين أن الحال كان خلاف ذلك فى المدينة (يثرب) ، التى كانت أحياؤها منفصلة بعضها عن بعض بما يصل إلى ثلاثة أميال وأحيانا أكثر من ذلك .

---

(٢٧) الحرار : جمع حرة ، والحرة أرض ذات حجارة سود نخرة كأنما احترقت . ويقول الجيولوجيون إنها احترقت بفعل البراكين .

ومما ذكرته الموسوعة الإسلامية الميسرة أن المدينة لم تكن منذ البداية الأولى بلدة نظامية ، وإنما كانت مجموعة من البيوت والأكواخ تحيط بها البساتين والحقول المزروعة ، وكان سكانها ممن يشتغلون بالزراعة ؛ ولهذا أطلق عليهم الأعراب اسم « النبطة » من قبيل الازدراء . هذه المستوطنات المتفرقة لم تصبح تجمعات على هيئة مدينة إلا بالتدريج ، وإن امتدت برغم ذلك نحو الشمال مسافة أبعد مما وصلت إليه البلدة المتأخرة .

والمدينة التي قامت بهذه الطريقة لم يكن بها سور ، بحيث إن وسائل الدفاع عنها كانت أحراشا كثيفة من أشجار النخيل والبساتين التي تحيط بالبيوت . وكانت أقل كثافة سكانية على الجانبين الشمالي والغربي ؛ لهذا كانا أكثر الأجزاء تعرضا لهجمات الأعداء . وكانت الحصون الصغيرة التي كان العرب يسمونها أطما وجمعها آطام ، أو أجما والجمع آجام ، التي أقيمت بأعداد كبيرة ـــ تشكل بديلا عن السور ، وكان فى إمكان السكان أن يلجئوا إليها فى أوقات المتاعب

وهناك خلاف بشأن التاريخ الذى نشأت فيه يثرب ، ولكن الراجح أن أول من نزل بمنطقة يثرب هى قبيلة « عبيل » العربية التى أهلكها السيل المسمى بسيل « الجحفة » وعبيل يعود أصلها إلى « العماليق » و « جرهم الأولى » . والعماليق من العرب العاربة الذين يسبقون فى الوجود العرب المستعربة ، أى أبناء إسماعيل عليه السلام وأحفاده . وعلى ذلك فإن تاريخ يثرب يرجع إلى بداية الألف الثانى قبل الميلاد ، أى إلى ماقبل ميلاد موسى عليه السلام بأكثر من

خمسمائة عام . ويقول الأستاذ أمين مدنى : إن العماليق الذين سكنوا يثرب كانوا خليطا من بطون « عاد » و « ثمود » وخلفائهم من قبائل « لحيان » و « دادان » ، وغيرهما من القبائل فى شمال الحجاز .

ومما قاله الأصفهانى فى هذا الشأن ، أن ساكنى المدينة فى أول الدهر ، قبل بنى إسرائيل ـــ كانوا قوما من الأمم الماضية يقال لهم العماليق ، وكانوا قد تفرقوا فى البلاد ، وكانوا أهل عز وبغى شديد ، فكان ساكنو المدينة منهم بنو هف ، وبنو سعد ، وبنو الأزرق ، وبنو مطروق . وكان ملك الحجاز منهم رجلاً يقال له الأرقم ، ينزل ما بين تيماء إلى فدك ، وكانوا قد ملئوا المدينة ، ولهم بها نخل كثير وزروع ، ثم يذكر الأصفهانى قصة الجيش الذى بعث به موسى بن عمران للقضاء على العماليق .

فإذا كان اليهود قد جاءوا إلى الحجاز فى القرن الأول أو الثانى الميلادى وهو الراجح على ماذكرنا سابقا ـــ فمعنى ذلك أنهم دخلوا إلى يثرب وفيها اللحيانيون ، حيث ذكر الكاتب الرومانى « بيلنوس » أن بطونا منهم كانت منتشرة بين ينبع وأيلة ، وفى داخل البلاد وفى العلا وهضبات خيبر ، وأنهم كانوا فى القرن الأول الميلادى خاضعين للأنباط .

ومعنى هذا أن العرب الذين كانو يقيمون فى يثرب عندما غزاها اليهود كانوا من اللحيانيين الذين كان عددهم قليلا للغاية ، وربما يكون السبب أن اليهود قتلوا منهم أعدادا كبيرة لكى تكون لهم الغلبة . ولقد ظلت لهم الغلبة حتى بعد أن جاء الأوس والخزرج إلى

يثرب قادمين من اليمن فى أعقاب تصدع سد مأرب .

وتاريخ انتقال الأوس والخزرج إلى يثرب موضع خلاف هو الآخر ، فهناك رأى يربط بين تصدع السد وهجرة الأوس والخزرج ، وعلى ذلك تكون هذه الهجرة قد حدثت فى عام ٥٢٠ ميلادية وهو تاريخ انهيار السد ، وهو رأى جواد على . أما الدكتور حسن إبراهيم فيقول : إن السد انهار سنة ٥٦٥ م . وهناك رأى آخر يذهب إلى أن هذه الهجرة حدثت قبل ذلك بأكثر من نصف قرن ، أى أنهم لايربطونها بانهيار السد وإنما بتصدعه ، ويستند أصحاب هذا الرأى إلى ما ورد فى رواية « ابن إسحاق » التى نقلها لنا « ابن هشام » والتى تقول : إن الذين غزاهم « تبان أسعد » التبعى فى المدينة هم الأوس والخزرج . ولما كانت هذه الغزوة قد حدثت بين عام ٤٠٠م وعام ٤٢٠م فمعنى هذا أن الأوس والخزرج كانوا يقيمون فى يثرب قبل عام ٤٠٠ م وهو العصر الذى عاش فيه « تبان أسعد » . وللأستاذ أحمد أمين رأى ، وهو أن هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب حدثت حوالى عام ٣٠٠ م .

ويصف الأصفهانى هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب فيقول : فلما أرسل الله سيل العرم على أهل مأرب ، وهم الأزد ، قام رائدهم فقال ... ومن كان منكم يريد الراسخات فى الوحل ، المطعمات فى المحل فليلحق بيثرب ذات النخل ، فكان الذين نزلوها الأوس والخزرج ، فلما توجهوا إلى المدينة ووردوها نزلوا فى صرار (موضع على قرب من المدينة) ثم تفرقوا وكان منهم من لجأ إلى عفاء (يباب)

من أرض لا ساكن فيه ، فنزلوا به ومنهم من لجأ إلى قرية من قراها ، فكانوا مع أهلها ، فأقامت الأوس والخزرج فى منازلهم التى نزلوها بالمدينة فى جهد وضيق من المعاش ، ليسوا بأصحاب إبل ولا شاة ؛ لأن المدينة ليست بلاد نَعَمٍ، وليسوا بأصحاب نخل ولا زرع، وليس للرجل منهم إلا الأعذاق اليسيرة ، والمزرعة يستخرجها من أرض موات ، والأموال لليهود ، فلبثت الأوس والخزرج بذلك حينا .

وكانت قريظة والنضير تتيهان على العرب ، بل والقبائل اليهودية الأخرى بنسبهما إلى الكاهنين ، وهما هارون والعازار ، وهذا يعنى المكانة الدينية الرفيعة وفى نفس الوقت التعصب المقيت . وهذا كعب ابن سعد القرظى يزهو ويفاخر بنسبه إلى الكاهنين فيقول :

بالكاهنين قررتم فى دياركم جما ثواكم ومن أجلاكم جَذُبا

وسواء أكانت هجرة الأوس والخزرج فى هذا التاريخ أو فى ذاك فإن الثابت أنهم حين نزلوا يثرب لم يكونوا أهل نَعَمٍ وشاء وخيل وأموال ، وإنما كان ذلك لليهود فعاشوا بين اليهود وبالضواحى والقرى فى شظف من العيش وهوان وذل ؛ إذ تحكم اليهود فيهم وحكموهم . وأصبح الأوس والخزرج موالى لهم . وكان اليهود يستمدون قوة إضافية من الفرس ، حيث إن هذا الجزء من شمال بلاد العرب كان آنذاك تحت حكمهم ، وذلك تمشيا مع السياسة اليهودية المعتادة فى الإبقاء على علاقات ودية مع فارس بعد ماأنزله بهم الرومان من اضطهاد وتعذيب .

وهكذا عامل اليهود العرب أسوأ معاملة ، فلم يكتفوا بالاستيلاء على أراضيهم وسلب أموالهم والتضييق عليهم فى العيش وإلزامهم بأداء الخراج ، وإرغامهم على السكنى فى مناطق مجدبة ، بل أضافوا إلى ذلك الاعتداء على بناتهم . ويروى ياقوت فى معجمه قصة الملك اليهودى المسمى بـ (الفطيون) فيقول :

وكانت اليهود والأوس والخزرج يدينون له ، وكانت له فيهم سنة ألا تزوج امرأة منهم إلا أُدخِلت عليه قبل زوجها حتى يكون هو الذى يفتضها ، إلى أن زوجت أخت لمالك بن العجلان بن زيد السالمى الخزرجى ، فلما كانت الليلة التى تُهدَى فيها إلى زوجها خرجت على مجلس قومها كاشفة عن ساقيها وأخوها فى المجلس ، فقال لها قد جئت بسوءة بخروجك على قومك وقد كشفت عن ساقيك قالت : الذى يراد بى الليلة أعظم من ذلك ؛ لأننى أدخل على غير زوجى ، ثم دخلت إلى منزلها ، فدخل إليها أخوها وقد أرمضه قولها فقال لها : هل عندك من خبر ؟ قالت : نعم ، فماذا ؟ قال : أدخل معك فى جملة النساء على الفطيون ، فإذا خرجنَ مِن عندك ودخل عليك ضربته بالسيف حتى يبرد ، قالت : افعل ، فتزيا بزى النساء وراح معها ، فلما خرج النساء من عندها دخل الفطيون عليها ، فشد مالك بن العجلان عليه بالسيف وضربه حتى قتله ، وخرج هاربا حتى قدم الشام ، فدخل على ملك من ملوك غسان يقال له أبو جبيلة ، وفى بعض الروايات أنه قصد اليمن إلى تبع الأصغر بن حسان فشكا إليه ماكان من الفطيون وماكان يعمل فى نسائهم ، وذكر له أنه قتله وهرب ، وأنه لا يستطيع الرجوع خوفا من اليهود ، فعاهده أبو

جبيلة ألا يقرب امرأة ولا يمس طيبا ولا يشرب خمرا حتى يسير إلى المدينة ويذل من بها من اليهود ، وأقبل سائرا من الشام فى جمع كثير مظهرا أنه يريد اليمن حتى قدم المدينة ونزل بذى حرض ، ثم أرسل إلى الأوس والخزرج أنه على المكر باليهود عازم على قتل رؤسائهم ، وأنه يخشى متى علموا بذلك أن يتحصنوا فى آطامهم (حصونهم) وأمرهم بكتمان ما أسره إليهم ، ثم أرسل إلى وجوه اليهود أن يحضروا طعامه ليحسن إليهم ويصلهم ، فأتاه وجوههم وأشرافهم ومع كل واحد منهم خاصته وحشمه ، فلما تكاملوا أدخلهم فى خيامه ثم قتلهم عن آخرهم ، فصارت الأوس والخزرج من يومئذ أعز أهل المدينة وقمعوا اليهود وسار ذكرهم وصار لهم الأموال والآطام .

وكما كان إذلال اليهود للعرب شديدا وقاسيا ، فإن فرحتهم بهزيمتهم كانت شديدة ، وكعادتنا الآن عندما نحرز نصرا ، مهما كان ضئيلا ، نغنى ونهلل ، فكذلك فعل الأوس والخزرج ، فقد تبارى شعراؤهم فى نظم الأشعار التى تعبر عن الزهو والفخر بما فعله أبو جبيلة . فقال الرمق وهو عبيد بن سالم بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف من الخزرج يمدح أبا جبيلة الغسانى :

لم يقض دينك فى الحسا ... ن وقد غنيت وقد غنينا
الراشقات المرشقا ... ت الجازيات بما جزينا
أمثال غزلان الصرا ... ئم يأتزرن ويرتدينا
الربط والديباج ... والزرد المضاعف والبرينا
وأبو جبيلة خير من ... يمشى وأوفاهم يمينا

وقال الصامت بن أصرم النوفلى يذكر قتل أبى جبيلة لليهود :

سائل قريظة من يقسم سبيها [٢٨] يوم العريض ومن أفاء المغنما
جاءتهم الملحاء يخفق ظلها وكتيبة خشناء تدعو أسلما
عمى الذى جلب الهمام لقومه حتى أحل على اليهود الصيلما

أما اليهود فقد أخذوا يبكون عزهم الذى ولى أوكاد ويرثون قتلاهم ، وها هى امرأة منهم تدعى سارة القرظية قالت فى رثاء من قتلهم أبو جبيلة :

بنفسى أمة لم تغن شيئا بذى حرض تعفيها الرياح
كهول من قريظة أتلفتها سيوف الخزرجية والرماح
رزئنا والرزية ذات ثقل يمر لأهلها الماء القراح
ولو أربو بأمرهم لجالت هنالك دونهم جأوا رداح

ثم انصرف أبو جبيلة راجعا إلى الشام ، وقد ذلل الحجاز والمدينة للأوس والخزرج ، فعندها تفرقوا فى عالية المدينة وسافلتها ، فكان منهم من جاء إلى القرى العامرة فأقام مع أهلها قاهرا لهم ، ومنهم من جاء إلى عفا من الأرض لا مساكن فيه فبنى فيه ونزل ، ثم اتخذوا بعد ذلك القصور والأموال والآطام . ويقول الدكتور حسن إبراهيم : إن ذلك كان فى نهاية القرن الخامس الميلادى . وهكذا كانت المرأة العربية الحريصة على عفتها من أن يدنسها يهودى ـــ السبب فيما نزل

---

(٢٨) يعنى بقوله : « من يقسم سبيها » نسوة سباهن أبو جبيلة من بنى قريظة ، وكان رآهن فأعجبنه ، وأعطى مالك بن العجلان منهن امرأة .

باليهود ، وأدى إلى القضاء على بعض قوتهم ولكن ليس كلها .

قال أبو هلال أحد بنى المعلى : إنهم ، أى العرب ، أقاموا زمنا ما صنع أبو جبيلة ، ويهود تعترض عليهم ، وتناوئهم ، فقال مالك العجلان لقومه والله ماأثخنا يهوداً غلبة كما نريد ، فهل لكم أن أ لكم طعاما ، ثم أرسل فى مائة من أشراف من بقى من اليهود ، جاءونى فاقتلوهم جميعا ، فقالوا نفعل ، فلما جاءهم رسول م قالوا : والله لا نأتيهم أبدا ، وقد قتل أبو جبيلة منا من قتل ، فقال مالك : إن ذلك كان على غير هوى منا ، وإنما أردنا أن نمحو وتعلموا حالكم عندنا ، فأجابوه ، فجعل كلما دخل عليه رجل أمر به مالك فقتل حتى قتل منهم بضعة وثمانين رجلا ، ثم إن ر منهم أقبل حتى قام على باب مالك فتسمع فلم يسمع صوتا فقا أرى أسرع وِرْد وأبعد صدر (يريد أن من دخل لا يرجع) فر وحذر أصحابه الذين بقوا ، فلم يأت منهم أحد ، فقال رجل اليهود لمالك بن العجلان :

فسفهت قيلة أحلامها ففيمن بقيت وفيمن تسو

فقال مالك :

فإنى امرؤ من بنى سالم بـ ـن عوف وأنت امرؤ من

قال : وصورت اليهود مالك بن العجلان فى بِيَعِهم وكنائسه فكانوا يلعنونه كلما دخلوها . فقال مالك فى ذلك قوله :

تحامى اليهود بتلعانها تحامى الحمير بأبـ
فماذا علىَّ بأن يلعنوا وتأتى المنايا بإذ

قال : فلما قتل مالك من يهود مَن قتل ذلوا ، وقل امتناعهم ، وخافوا خوفا شديدا ، وجعلوا كلما هاجمهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم إلى بعض ، كما كانوا يفعلون قبل ذلك ، ولكن يذهب اليهودى إلى جيرانه من العرب يحتمى بهم .

وللأسف فإن ماكان يفعله الفطيون ظل سبة فى جبين سكان المدينة (يثرب) حتى بعد أن ساد الإسلام بمدة طويلة . ففى هجاء ابن قنبز لمسلم بن الوليد ردا على هجاء هذا لقريش وفخره بالأنصار قال ابن قنبر فى سكان المدينة :

فعزوا وقد كانوا وفطيون فيهمُ ... من الذل فى باب من العز مبهم
يسومهم الفطيون مالا يسامه ... كريم ومن لا ينكر الظلم يظلم

وقال فى قصيدة أخرى :

فاخر الغر من قريش بإخوا ... ن خنازير يثرب والقرود
يتولى بنى النضير ويدعو ... بهم الفخر من مكان بعيد
وبنى الأوس والخزارج أهل الذ ... ل فى سالف الزمان التليد
إذ رضوا بافتضاض فطيون منهم ... كل بكر ريا الروادف رود
وبنوعمها شهود لما يفـ ... ـعل فطيون قبحوا من شهود
خلف باب الفطيون والبعل منهم ... لا بذى غيرة ولا بنجيد
فإذا ماقضى اليهودى منها ... نحبه قنعوا بخزى جديد

وإذا كان اليهود قد فقدوا الملك ، إلا أنهم لم يفقدوا غيره من عناصر القوة ؛ فقد احتفظوا بكل أراضى المدينة الخصبة تقريبا ملكا

لهم ، كما كانت التجارة فى أيديهم ، وكذلك الصناعات القليلة ، ومن بينها صناعة الأسلحة مثل السيوف والخناجر ، وصياغة الذهب التى كانت صناعتهم الرئيسية ، فضلا عن المال الذى كانوا يقرضونه للعرب المحتاجين بالربا الفاحش . ولعل ما قاله أحد زعماء الخزرج لقومه يبين لنا سوء الأوضاع التى كان العرب يعيشون فيها . فقد قال عمرو بن النعمان البياضى لأهله : إن أباكم أنزلكم منزل سوء بين سبخة (أرض ذات نز وملح) ومفازة (الفلاة لا ماء فيها) وإنه والله لايمس رأسى غسل حتى أنزلكم منازل بنى قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل . وفى هذا القول دليل على أن العرب كانوا محرومين من الماء العذب وكريم النخل فضلا عن عدم صلاحية البيئة للإقامة .

وعمرو بن النعمان هو ثانى عربى بعد مالك بن العجلان يدرك أن اليهود دخلاء مغتصبون ينعمون بما اغتصبوه من العرب من أرض وثمار ، فأقسم أن يمنع ذلك ، كما سبق لمالك أن منع الفطيون من اغتصاب النساء العربيات . هذا على الرغم من أن العرب كانوا قد حسنوا ظروفهم بعض الشيء فى أعقاب هزيمة أبو جبيلة لليهود ، فقد أقام الخزرج فى مركز البلد الذى تشغله المدينة « الحديثة » وإلى الغرب والجنوب منهم كانت تعيش قبائل أخرى من الخزرج أيضا ، فى حين امتدت أرض الحارث إلى الشرق . أما الأوس — وكانوا يضمون أسرات عدة أيضا — فكانوا يقيمون فى جنوب وشرق إخوانهم . وكان بنو الحارث يفصلون أهل الشمال الشرقى عن أقربائهم .

أما اليهود من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة فقد كانوا يقيمون خارج المدينة فيما نسميه الآن « ضواحى » المدينة . فى مناطق ذات أهمية استراتيجية وطبيعة حاكمة . فبنو قريظة مثلا كانوا يقيمون على أميال من المدينة فى حصونهم القوية التى كانت تقع على ربوة تشرف على المدينة من الشرق ، وقريب منها تقع أراضيهم التى كانوا يزرعونها . وكانت حصون اليهود مغلقة فى وجه العرب يجهلون تماما مابداخلها من سلاح وعتاد ، كما أنه كان لديهم مقاتلون يتميزون بالقوة الجسمانية والمهارة فى استخدام السلاح . وكان العرب يهابونهم ، لا عن تجربة وخبرة ، فهم لم يخوضوا حربا ضدهم منفردين ، وإنما كان اليهود يحرصون على أن يكونوا مع أحد الفريقين ، الأوس أو الخزرج ، ضد الفريق الآخر ، وغالبا ماكانوا يختارون الفريق الأقوى ، حتى إذا انتصر نسبوا لأنفسهم الفضل فى انتصاره ، أما إذا هزم فإذا لم يلقوا عليه بالمسئولية عن الهزيمة ، فإنهم على الأقل يتقاسمونها معه ، وفى أغلب الأحوال فإنهم كانوا يتحاشون أن تلحق بهم خسائر ، أما المكاسب فإنهم كانوا أول من يبادر إلى قطف ثمارها . وحينما كان العرب يتوقفون عند حد معين ، طالما أنهم قد انتصروا فإنهم ، أى اليهود ، كانوا يصرون على المضى حتى النهاية ، فينكلون بالطرف الذى لحقت به الهزيمة ، يعملون فى فلوله التقتيل ، وينهبون المساكن ، ويسبون النساء ، أو يعتدون عليهن متظاهرين بالحماس للطرف الغالب وبالرغبة الشديدة فى الانتقام له .

وعلى الرغم من ضآلة المكاسب التى حققها العرب نتيجة لغزوة

أبى جبيلة لليهود ، فإن هؤلاء أبوا أن يرضحوا للأمر الواقع ويعترفوا للعرب بما استردوه من حقوق ضئيلة ، وإنما أخذوا يسعون لبث الفرقة بين العرب ، فيؤلبون الأوس على الخزرج ، ويحرضون الخزرج على الأوس ، ويقفون مع هؤلاء تارة ومع أولئك تارة أخرى ، وغرضهم الحيلولة دون زيادة قوة إحدى القبيلتين على حساب القبيلة الأخرى ، حتى لا تشكل خطرا عليهم ، وإنما السعى إلى إضعاف الجميع حتى يكونوا هم وحدهم الأقوياء ، فإذا سنحت لهم فرصة انتهزوها للانقضاض على الفريقين وإخضاعهما لسلطانهم مرة أخرى . ومن هنا كانت كثرة الوقائع بين الأوس والخزرج التى تكبد فيها الفريقان أفدح الخسائر ، فى الأرواح والممتلكات .

وفى حرب سمير التى نشبت بين الأوس والخزرج عقب زوال ملك اليهود بفضل مساعى مالك بن العجلان وجهود أبو جبيلة ، انضم يهود بنى قريظة وبنى النضير إلى الأوس ضد الخزرج الذين كان مالك بن العجلان منهم . وقد استمرت هذه الحرب عشرين عاما ، وانتهت بالصلح بين الجانبين . ثم بعد ذلك بذل اليهود تأييدهم للخزرج ضد الأوس ، وذلك فى الحرب التى نشبت بينهما بسبب قيام أحد اليهود بركل عربى فى مؤخرته ، وكان هذا العربى ضيفاً على أحد أشراف الأوس واسمه حاطب بن قيس ، فلما أصابته الركلة استغاث بمضيفه الذى أقبل مسرعا ، ولما علم بما فعله اليهودى ضربه بسيفه ضربة فلق بها هامته ، وهكذا قامت الحرب بين الأوس والخزرج ، وهزم الخزرج الأوس .

ولكن اليهود عادوا فانحازوا إلى الأوس مرة أخرى ، فهم لا يرغبون أن يروا فريقا من العرب يزداد قوة ؛ لما فى ذلك من خطر عليهم . فلما رأى الخزرج ذلك أنذروا اليهود وهددوهم إن هم استمروا فى مساندة الأوس ، فرد عليهم اليهود بما يتضمن الوعد بالكف عن نصرة الأوس ، ولكن الخزرج لم يكتفوا بذلك ، وطلبوا منهم أن يودعوا لديهم رهائن من أبنائهم لكى يضمنوا عدم مساعدتهم للأوس ، فبعثوا إليهم بأربعين غلاما منهم ، ففرقهم الخزرج فى دورهم ، ومكثوا بذلك مدة . ولكن حدث أن رجلا من الخزرج يدعى يزيد بن فسحم شرب يوما فسكر فتغنى بشعر يذكر فيه موضوع الرهائن ، وعرض باليهود قائلا :

هلم إلى الأحلاف إذْ رقَّ عظمهم ... وإذْ أصلحوا مالاً لجذمان ضائعا
إذا ماامرؤ منهم أساء عمارة ... بعثنا عليه من بنى العير جادعا
فأما الصريح منهم فتحملوا ... وأما اليهود فاتخذنا بضائعا
أخذنا من الأولى اليهود عصابة ... لغدرهم كانوا لدينا ودائعا
فذلوا لرهن عندنا فى حبالنا ... مصانعة يخشون منا القوارعا
وذاك بأنا حين نلقى عدونا ... نصول بضرب يترك العز خاشعا

فبلغ قوله قريظة والنضير فغضبوا ، وتوعد كعب بن الأشرف الخزرج ، وسعى فى تأليب الأوس عليهم ، فلما سمعت الخزرج بذلك قتلوا كل من عندهم من الرهن من أولاد قريظة والنضير . وعندئذ اجتمعت الأوس وقريظة والنضير على حرب الخزرج فاقتتلوا قتالا شديدا ، وسمى ذلك اليوم بيوم الفجار الثانى لقتل الغلمان ، ويقول

ابن الأثير : إن الخزرج إنما قتلوا الرهائن بسبب غدر اليهود فأحرى أن يسمى الفجار لغدر اليهود لا العرب .

أما آخر حرب بين الأوس والخزرج فتسمى يوم بعاث . وكان السبب فى وقوعها أن قريظة والنضير جددوا العهد مع الأوس على المؤازرة والتناصر ، واستحكم أمرهم وجدوا فى حربهم ، ودخل معهم قبائل من اليهود غير من ذكرنا ، فلما سمعت بذلك الخزرج جمعت وحشدت وراسلت حلفاؤها من أشجع وجهينة ، كذلك راسلت الأوس حلفاءها من مزينة ، ومكثوا أربعين يوما يتجهزون للحرب ، والتقوا ببعاث ، وهى من أعمال قريظة ، وتخلف عبد الله ابن أبى بن سلول فيمن تبعه من الخزرج . وفى أول الأمر انهزم الأوس ومعهم اليهود ، ثم مالبثت الدائرة أن دارت على الخزرج ، فقتل قائدهم ، ووضعت الأوس فيهم السلاح ، ولكن أحدهم صاح : يامعشر الأوس ، أحسنوا ولاتهلكوا إخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب ، فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم ، ولكن اليهود استمروا فى سلب الخزرج انتقاما وتشفيا .

وأقسم كعب بن أسد القرظى ليذلن عبد الله بن أبى ؛ ظنا منه أنه اشترك فى الحرب إلى جانب إخوانه الخزرج . ولم يكف إلا بعد أن ثبت له أن عبد الله بن أبى لم يشترك فى الحرب .

وكان يوم بعاث آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ، فقد جاء الاسلام فجمع بينهما ووحد كلمتهما ، وضيَّع على اليهود

الفرصة نهائيا ، بل وأصبح المسلمون يحاسبونهم على أى إساءة تقع منهم فى حق الآخرين .

مستوطنة تيمـاء

أما المناطق الأخرى غير (يثرب) فإنها لم تكن تقل عنها خصوبة وقيمة من الناحية الاستراتيجية والموقع الاقتصادى ، ومنها تيماء التى ذكرت المراجع أنها تقع فى واحة كثيرة الماء فى شمالى الجزيرة العربية على مسيرة أربعة أيام إلى الجنوب من دومة الجندل ، ويقول المقدسى : إنها على مسيرة ثلاثة أيام من الحجر ، وأربعة أيام من وادى القرى ، وهى فى غور طوله ميلان ، وعرضه خمسمائة ياردة ، وكانت تيماء محطة هامة للقوافل . ويقول الأستاذ محمد عزة دروزة : إن تيماء كانت ملتقى قوافل التجارة تغدو وتروح بين الجنوب والشمال وإن أهلها كانوا ماهرين فى الأعمال التجارية ، وإنهم دفعوا الجزية لتغلات بلاشر ؛ فدية ورغبة فى الاستمرار على نشاطهم التجارى بعد أن وقعت البلاد الشمالية تحت سيطرته . والسبب فى غزو تغلات بلاشر لتيماء أن سمسى ملكة عريبى انضمت إلى تحالف كبير فى عام ٧٣٢ ق.م ضم دولة سبأ وملك دمشق وواحة تيماء الهامة ، وقبائل أخرى قرب تيماء وديدان (العلاء) ضد تغلات بلاشر الثالث الذى كان يطمع فيما يعود على هذه المناطق من ثروة نتيجة لامتداد ماكان يسمى بـ (طريق البخور) خلالها ، وكان هذا الطريق يبدأ من البحر الأبيض عند غزة ، ومن دمشق عن طريق معان

وديدان ويثرب إلى رجمة (نجران) وسبأ ، فما كان منه إلا أن شن حربا عليها فأخضعها بما فيها تيماء .

ويزعم اليهود أن أشعياء تنبأ بما سيحدث للعرب فى تلك الحرب ، ففى الإصحاح ٢١ من سفر أشعياء يقول : « وحي من جهة بلاد العرب . فى الوعر فى بلاد العرب تبيتين ياقوافل الددانيين . هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان واحة تيماء وافوا الهارب بخبزه . فإنهم من أمام السيوف قد هربوا . من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب . فإنه هكذا قال لى السيد فى مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار وبقية عدد قسى أبطال بنى قيدار تقل لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم ».

وكانت اليهود تسمى العرب من أبناء إسماعيل باسم قيدار الذى قيل إنه أحد أبناء إسماعيل ، ونلاحظ كراهية أشعياء الشديدة لهم ، وسروره بما سيحيق بهم من هزيمة . وكان ذلك فى القرن الثامن قبل الميلاد .

كذلك غزا الملك بونئد ملك بابل تيماء عام ٥٥٠ ق.م وحكمها ثمانى سنوات وأنفذ حملة وصلت إلى يثرب . وشيد قصرا ومعبدا فى تيماء وجعل منها مركزا لديانة عريقة فى القدم هى عبادة الإله سين رب القمر الآرامى .

وفى سنة ٣٧٥ ميلادية خضعت تيماء للملك الحبشى المدعو « عيزان » ولكن ذلك لم يدم طويلا ؛ إذْ مالبثت أن خضعت للفرس .

وكان شأن تيماء كشأن غيرها من الواحات العربية الخصبة التى نزح إليها اليهود من فلسطين أيام الاضطهاد الرومانى ، غير أن تيماء اجتذبت أعدادا أخرى من اليهود الذين كانوا يقيمون فى مناطق أخرى من الحجاز لاتتمتع بما كانت تتمتع به فنزحوا إليها وأقاموا فيها .

ويبدو أنهم كانوا مثل يهود المدينة (يثرب) يسيئون معاملة العرب ، وإن كان هؤلاء ــ على مايبدو ــ أقل حمية من إخوانهم عرب يثرب ، حيث اكتفوا بالشكوى ولا يحاولون أن يحطموا نير التسلط اليهودى ، وها هو أحدهم ينظم شعرا يعبر فيه عن معاناته هو وإخوانه من ظلم اليهود فيقول :

إلى الله أشكو ، لا إلى الناس ، أننى بتيماء تيماء اليهود غريب
وأنى بتهباب الرياح موكل طروب إذا هبت عَلَىَّ جنوب
وإن هب علوى الرياح وجدتنى كأنى لعلوى الرياح نسيب

فالرجل ، كما نلاحظ ، ضائع فى بلده بسبب تعنت اليهود واستغلالهم ووقاحتهم

وكما فعل يهود يثرب ، لما علموا ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعل يهود تيماء ، فقد ناصبوه العداء وارحوا يتآمرون مع بنى عمومتهم فى يثرب وخيبر ووادى القرى وقمنا وتبوك وفدك يريدون القضاء عليه ، ولكن شاءت إرادة العلى القدير أن يقضى عليهم ، وأن تخلص الحجاز واليمن وكل الجزيرة لأبنائها العرب كما ستخلص فلسطين إن شاء الله .

مستوطنة تبــوك

وتبوك من الواحات العامرة التى استوطنها اليهود أيضا ، وهى تقع على مسيرة أربعة أيام من الحجر ، واثنى عشر يوما من يثرب ، وهى واقعة على نَشَزٍ فى سهل رملى وبها بئر صالح ، ومن الراجح أن يكون هو الوارد ذكره فى القرآن الكريم . وكانت تبوك أيام النبى صلى الله عليه وسلم على الحدود الشمالية لبلاد العرب وتبدأ بعدها حدود الدولة البيزنطية (دولة الروم) . وكان يهود تبوك يُنَكِّلُون بمن يقيم بين ظَهْرَانَيْهم من العرب ، فلما ظهر الإسلام أخذوا يتآمرون ضده مع بنى عمومتهم فى المستوطنات اليهودية الأخرى ، وظنوا أن وجود تبوك على مسافة بعيدة من يثرب وقربها من الحدود البيزنطية سوف يمنع المسلمين من غزوها وتأديبهم وكسر شوكتهم ، ولكن خاب فألهم ، فقد طالتهم أيدى المسلمين كما طالت بنى عمومتهم فى يثرب ثم فى خيبر ووادى القرى .

مســتوطنات أخــرى

وهناك ــ فضلا عما تقدم ذكره من مستوطنات لليهود ــ كثير من الواحات والأقاليم التى اغتصبوها من العرب ، منها أذرح ، ومقنا ، وبنى جنبه ، وبنى عريض ، وبنى غاريا ، والجرباء ، وفدك .

وأذرح كانت فى أطراف الشام من أعمال الشراة ، ثم من نواحى البلقاء . ويقول ياقوت : إن الوضاح قد أخطأ إذ قال إنها من فلسطين ، وإنما هى فى قبلى فلسطين من ناحية الشراة . وجاء فى

كتاب مسلم بن الحجاج أن بين أذرح والجرباء ، وهى مستوطنة يهودية أيضا ، ثلاثةَ أيام ، بينهما ميل واحد أو أقل ؛ لأن الواقف فى هذه ينظر هذه .

أما أذرعات التى نفى إليها الرسول صلى الله عليه وسلم بنى قينقاع ، فكانت تقع فى أطراف الشام بجوار أرض البلقاء وعمان ، ينسب إليها الخمر . ويقول ياقوت : إن العرب ذكرتها فى أشعارها ؛ لأنها لم تزل من بلادها فى الإسلام وقبله ، فقد قال امرؤ القيس :

ومثلك بيضاء العوارض طفلة لعوب تنسينى — إذا قمت — سربالى
تَنَوَّرْتُها من أذرعات وأهلها بيثرب ، أدنى دارها نظرٌ عالِ

يريد أن يقول ، أى ياقوت ، إنها لم تكن يهودية أبدا ، وإنما اغتصبها اليهود ، فلما استردها المسلمون عادت — كما كانت — عربية .

الفصـــل الثانى

كيــف قضــى المسلمــون علـى المستــوطنات اليهودية ؟

كيـف قضـى المسلمـون عـلى المستـوطنات اليهودية ؟

كان اليهود فى يثرب قد سمعوا الشيء الكثير عن الرسول صلى الله عليه وسلم منذ أن أظهر دعوته فى مكة ، فساورهم القلق ، ولكنهم حرصوا على التظاهر باللامبالاة ، باعتبار أن الأمر لا يعنيهم ، وإنما يعنى العرب الذين أخذ محمد عليه الصلاة والسلام يُسَفِّه أحلامهم ويُعَرِّض بآلهتهم . واعتقد اليهود أن قريشا وبقية العرب سوف يتكفلون به ويقضون على دعوته فى المهد ، وبالتالى فلا يجب عليهم أن يتدخلوا لكيلا يؤدى ذلك إلى تعصب العرب للرسول نكايةً فى اليهود الذين كانوا يُكِنُّون لهم كراهية شديدة .

ولكن موقف اليهود ما لبث أن تغير لمَّا علموا بأن المسلمين يزمعون الهجرة إلى المدينة بعد الاتفاق الذى تم بينهم وبين وفد الأوس والخزرج ، ثم مجيء المسلمين بالفعل ، وفى أعقابهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعندئذ أدرك اليهود أن الخطر لم يعد بعيدا عنهم وإنما أصبح فى عُقْر دارهم ، وعلى الفور بدءوا ينشطون من أجل منعه ، وذلك بالتآمر مع كل من له مصلحة فى القضاء على الإسلام .

ولقد أخطأ المستشرقون والمؤرخون الغربيون ، حين تصوروا أن

موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من اليهود ، عقب وصوله إلى المدينة ، وهو الموقف الذى اعتبروه مهادنا ــ قد تغير بعد ذلك لمّا اطمأن الرسول إلى قوته ووثق من صلابة وضعه . وهو تصور خاطىء بلا أدنى شك أوقعهم فيه التعصب .

ومما تجدر ملاحظته ، بالنسبة للغربيين الذين يتصدون لدراسة الإسلام ، أن ملكة النقد تنشط عندهم بشكل مَرَضِيٍّ ، فيمضون يوجهون النقد إلى الإسلام ، وكأنما أوتوا علم المتقدمين والمتأخرين ، وفى ثقة تصل إلى درجة الغرور ، دون أن يقولوا لنا شيئا عما كان يجب على المسلمين أن يفعلوه . وهذا الداء الوبيل يظهر بوضوح أكبر إذا تعلق الأمر بموضوع له صلة باليهود حتى ليبدون لمن يقرأ لهم وكأنهم قد نصبوا من أنفسهم مدافعين عنهم . أما الحقيقة فهى خلاف ذلك تماما ، فإذا كان اليهود قد عُذِّبوا ونُكِّل بهم بصورة بَشِعة ووحشية ، وبسبب وبدون سبب ــ فإن ذلك لم يقع لهم من أى شعوب كما وقع لهم من الشعوب الأوربية ، وفى مختلف حقب التاريخ ، ليس ذلك وحسب ، بل إن الغرب الذى يذوب رقة ويفيض إنسانية لم يبذل كل هذه الرعاية والحماية لليهود فى هذا القرن إلا من أجل أن يتخلص منهم ومن شرورهم وجشعهم واستغلالهم ، فلم يجد غير العرب ، وهم فى هذه الحالة المزرية من الضعف والتناحر ليرميهم بهم ، فلا إنسانية هناك ولا رقة ، وإنما هى المصلحة ولا شىء غيرها ، يبيع الغرب من أجلها القِيَمَ والمُثُلَ وكلَّ الفضائل ، بل الأهلَ والولدَ إذا اقتضى الأمر .

ولا ندرى ماذا كانوا يريدون من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفعل لكى يحظى برضائهم عن تصرفاته ؟ هل كانوا يريدون منه أن يبادر إلى التخلى عن الرسالة التى بعث من أجلها ويعتنق اليهودية ؟ حتى هذا لم يكن سيجعلهم يرضون عنه ؛ لأنهم فى الواقع لايحبون اليهود ولا اليهودية ، وبالتالى فإنهم كانوا يريدون منه أن يعتنق النصرانية . ولقد صدق الله العظيم إذ يقول ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (١).

لم يكن أمام الرسول صلى الله عليه وسلم يوم هجرته إلى المدينة إلا أحد أمرين بالنسبة لعلاقته باليهود : الأول : أن يجليهم عن المدينة دون سبب هام وواضح ، أما الثانى فأن يتركهم كما هم ، ويعمل على طمأنتهم والتحاور معهم ، لعلهم يهتدون ، أو على الأقل يكفون عن الكيد له . وبطبيعة الحال فإن أخذه بالأمر الأول كان ــ فضلا عما فيه من ظلم لا يرضى به الرسول صلى الله عليه وسلم ــ سيؤدى إلى مشاكل لا حصر لها : منها أن الأوس والخزرج كانوا حلفاء لليهود ، ولم يكن عدد الذين أسلموا من القبيلتين كبيرا بحيث يمكنهم أن يقفوا فى وجه من لم يسلموا إذا تصدوا للرسول ليمنعوه من إجلاء اليهود . هذا بالإضافة إلى ماكان لدى اليهود أنفسهم من قوة عسكرية ذات شأن فى حين لم يكن لدى المسلمين أية فكرة عن الحرب ، وبخاصة فى تلك الظروف البالغة السوء ، حيث هاجروا من بلدهم مكة وليس

(١) سورة البقرة – الآية ١٢٠

معهم سلاح ولا عتاد ، بل ولا يملكون قوت يومهم بعد أن اغتصبت قريش كل ماكان لهم .

فالرسول ، إذن ، لم يهادن اليهود ترقبا لفرصة تسنح فينقض عليهم ، وإنما أراد أن يمنحهم الفرصة ليتفهموا الإسلام وليتعاملوا مع المسلمين بشكل مباشرلعلهم يقتنعون ثم يهتدون .

وكان من المنطقى ، بل ومن العدل أن يعامل الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود معاملة طيبة ، طالما أنهم لم يظهروا له العداء والكراهية وإن أبطنوها . ولا شك أنه كان يعلم ذلك ، ولم لا ؟ أليس بنبى رسول يأتيه خبر السماء ؟ . ولكن الذى لا شك فيه أيضا أن الآخرين — وبخاصة الأنصار من أوس وخزرج — لم يكونوا يعلمون ، فقد كان بعضهم واقعا تحت تأثير بنى قريظة ، والبعض الآخر واقعا تحت تأثير بنى النضير أو بنى قينقاع يرتبطون معهم بالعهود والوعود ، وكل فريق يحسن الظن بالآخر ، واليهود من جانبهم يبالغون فى إظهار المودة والحب والرقة مع هؤلاء وهؤلاء كسبا لتأييدهم ، وتحسبا لما سوف يحدث فى المستقبل ، عندما يستفزون المسلمين فيرد عليهم هؤلاء فيجدون من حلفائهم من أوس وخزرج المؤازرة والتأييد . فماذا لو أن الرسول بادر اليهود بالعداء والطرد دون سبب ؟

ولن نتكلم هنا عن خضوع الرسول صلى الله عليه وسلم للوحى والتزامه بما يجرى إبلاغه به بصدد اليهود ، طالما أن المستشرقين والمؤرخين الغربيين يرفضون الاعتراف بأن القرآن الكريم هو كلام

الله الذى حمله جبريل عليه السلام إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقولون إنه كلامه . إذ لو كانوا يؤمنون ما قالوا ذلك الذى قالوه ، وما وجدنا بأنفسنا حاجة للرد عليهم ، ولكنه التعصب !!

وسنتابع فيما يلى علاقة الرسول صلى الله عليه وسلم باليهود منذ أن وصل إلى يثرب (المدينة) وما طرأ على هذه العلاقة من تغير انعكس على مواقفه منهم .

عقد الموادعة ـــ وغزوة بني قينقاع

بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم علاقته باليهود فى يثرب التى أصبح اسمها (المدينة) بأن عقد حلفا بين المسلمين من مهاجرين وأنصار ، وبين اليهود شرط فيه لجماعة اليهود المساواة مع المسلمين فى المصلحة العامه ، وكفل لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق ، وأمّنهم على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ، مما كان يجب عليهم معه أن يكفوا أذاهم عنه ويتركوه لما بعث من أجله ؛ ولكن ماجبلوا عليه من الشر والمكر والفساد أبى عليهم إلا أن يكيدوا له وللمسلمين . فأخذوا يشككون الناس فى صدق نبوته ويروجون الشائعات المغرضة ، ويتهمونه بالكذب والنقل عن كتبهم فى محاولة واضحة لصرف الناس عنه وتأليبهم عليه . ولم يكتفوا بالكلام المسموم يهمسون به فى آذان الناس ، بل تمادوا فى الجرأة والوقاحة ، وجاهروا بأحقادهم فى شعر راح بعضهم ينظمه ويردده فى مجالسهم ومجالس المشركين . والشعر يومذاك سلاح من أخطر الأسلحة ؛ لما كان له من تأثير قوى فى النفوس ، وكان الناس يحفظون الجيد منه ويرددونه ، فهو بمثابة

الإذاعة المسموعة والمرئية والصحف فى أيامنا هذه . وكان من شيوخ اليهود رجل يدعى أبا عفك ساءه انتصار المسلمين فى بدر ، فأخذ ينظم شعرا يهجو فيه النبى ويحرض قومه عليه ، فكأنه أعلن بذلك خروجه على عقد الموادعة ونبذه للواجبات التى فرضها على أطرافه يهودا ومسلمين ، ودلل على خطره الشديد على المسلمين وبالتالى ضرورة التخلص منه ؛ لذلك صدر الحكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ، وكلف أحد المسلمين وهو سالم بن عمير التنفيذ .

وهكذا أظهر الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود أن أى تصرف فيه إساءة للإسلام وللمسلمين لن يمر بدون عقاب مهما كان مرتكبه . كما أثبت للعرب من غير المسلمين أنه ليس بظالم ولا مفتئت على أحد ، بل معتدى عليه يرد الاعتداء .

ولقد كان قتل أبى عفك كفيلا بأن يجعل اليهود ــ لو كانوا عقلاء ــ يكفُّون عن سلوكهم الدنىء ويلتزمون بالعقد الذى كفل لهم الأمن والطمأنينة ، ولكنهم أصروا على المُضِىِّ فيما عقدوا العزم عليه من الكيد للإسلام وإحداث الوقيعة بين العرب مسلمين وغير مسلمين . وبدأت أقدم القبائل اليهودية المحاولة ، وهى قبيلة بنى قينقاع ذات الباع الطويل فى شق صفوف العرب فى الجاهلية والوقيعة بينهم . وكان يهود هذه القبيلة أثرياء لاحتكارهم العمل بصياغة الذهب وبيعه ، فهم لم يكونوا يعملون بالزراعة ولم تكن لهم أرض يزرعونها ، وكانت لهم سوق تحمل اسمهم . وفى ذات يوم ــ عقب غزوة بدر ــ توجهت امرأة مسلمة إلى سوقهم ، وقصدت صائغا

يهوديا لأجل أن تشترى منه حليا، وبينما هى جالسة إذ أقبل بعض اليهود ، وطلبوا منها أن تكشف عن وجهها ، فلما أبت عمد الصائغ نفسه إلى ذيل ثوبها فعقده بظهرها وهى لاتشعر ، فلما قامت بدت عورتها ، فأخذ اليهود يضحكون منها ، فصاحت فأقبل على صياحها رجل من المسلمين ، فلما رأى ما يحدث قتل الصائغ ، فشد اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهلُه المسلمين ، فأقبلوا ووقع الصدام بينهم وبين اليهود ، وأسرع بنو قينقاع بالارتداد إلى حصونهم استعدادا لقتال المسلمين ، وذلك بدلا من أن يحتكموا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيما حدث كما يقضى بذلك عقد الموادعة . ومن وراء حصونهم القوية أعلنوا المسلمين بالحرب على الرغم من أنهم هم الذين بدءوا العدوان ، ثم إن المسلم الذى قتل اليهودى قُتِل هو أيضا مما كان سيجعل حل المشكلة سهلا . ولكنهم لم يكونوا يريدون حلا ، بل حربا كحرب سمير وبعاث يقاتل فيها العرب بعضهم بعضا .

وكان قد سبق ليهود بنى قينقاع أن استفزوا المسلمين وتحدوهم ، مما جعل الرسول يحذرهم من مغبة ذلك وينصحهم بالكف عن ذلك ، فإذا بهم يقولون له فى عنجهية وصلف : يامحمد لا يغرنَّك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، يقصدون من ذلك أنهم على علم بالحرب وأنهم سوف يلحقون بالمسلمين الهزيمة ، فهم ليسوا كالكفار الذين هزمهم المسلمون ببدر . وفى هذا مايدل على أن بنى قينقاع ومن ورائهم بقية اليهود إنما أرادوا أن

يستدرجوا المسلمين إلى معركة يهزمونهم فيها؛ فيقضوا بذلك على الأثر الذى أحدثه انتصارهم فى بدر .

ومن المستبعد أن يكون ماحدث من الصائغ اليهودى تصرفا فرديا ؛ لأنه لو كان كذلك لَتصدَّى له اليهود من قريظة والنضير ، حرصا منهم على استمرار السلام والهدوء بينهم وبين المسلمين . ولكن الذى حدث أن الجميع أخذوا يسخرون من المرأة المسلمة وقد بدت عورتها ، وهو تصرف حقير من رجال ضد امرأة لا حول لها ولا قوة .

والراجح أنه كان هناك اتفاق بين اليهود ورأس النفاق عبد الله بن أُبَىٍّ بن سلول بشأن إشعال الفتنة واستدراج المسلمين إلى الحرب وهزيمتهم بعد أن استفحل خطرهم نتيجة لانتصارهم فى بدر ، فما إن يحدث الصدام حتى يتقدم هذا المنافق وأتباعه لنصرة مواليه من اليهود ، وينضم إليهم يهود بنى النضير وبنى قريظة وغيرهم من اليهود الذين كانوا يقيمون حول المدينة ، فتدور الدائرة على المسلمين وينتهى أمرهم ، إما إلى هزيمة ساحقة تقضى عليهم ، وإما إلى ضعف شديد يجعلهم لايمثلون أى خطر على اليهود .

فماذا كان على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفعل فى هذه الحالة ؟ لقد كان أمامه بعض الخيارات ، وهى أن يطلب من المسلمين التحلى بضبط النفس ، وكأنه ليس طرفا فى المشكلة . وهو مايفعله البعض الآن كلما ارتكب اليهود جريمة فى حق إخواننا الفلسطينيين . أو أن يفاوض اليهود فيعرف ماذا يريدون وما الذى لايريدونه ،

وعندئذ يدخلونه فى متاهة ليس لها آخر ، وتمتد المفاوضات فى حين أنهم يعدون العدة لتوجيه ضربة قاضية إلى المسلمين . أو أن يلجأ إلى الدولة الفارسية التى كان اليهود يدينون لها بالولاء يرجوها أن تمارس عليهم ضغطا من أجل أن يلينوا ويسلموا للمسلمين بجزء من مطالبهم ، وإذا راجعه أحد من المسلمين قال له إن جميع أوراق اللعب فى يد فارس . أو أن يلجأ إلى المعسكر الآخر ، معسكر القسطنطينية يدعوها للاشتراك فى مؤتمر دولى الغرض منه التوسل إلى اليهود لكى يستجيبوا لبعض مطالب المسلمين ، ويقسم لهم على حبه للسلام ، بل عشقه له ، وأنه لا يمانع فى الاعتراف لليهود بكل مايزعمون أنه حق لهم . أما الخيار الأخير فهو أن يواجه عدوانهم بالقوة والحزم والعزم فينبذ إليهم على سواء ، طالما أنه يخاف من خيانتهم ، كما أمره الله تعالى ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ (٢).

وهكذا بادر الرسول صلى الله عليه وسلم فحاصر حَيَّ بنى قينقاع بحصونه القوية قبل أن ينضم إليهم آخرون ، فأحاط بهم كما يحيط السوار بالمعصم بحيث منع عنهم الإمدادات ، وحال دون اتصالهم باليهود من بنى قريظة والنضير والمنافقين أتباع عبد الله بن أبى بن سلول . وانتظر بنو قينقاع أن يمد إليهم أحد من هؤلاء يده بالمساعدة دون جدوى . فقد تريث بنو النضير وقريظة ريثما يبدأ عبد الله بن أُبَىّ الهجوم فيتبعونه ، فى حين جبن هذا عن التصرف .

---

(٢) الأنفال - الآية ٥٨

وهنا تظهر براعة الرسول العسكرية وبُعْدُ نظره وحكمته وإلمامه الكامل بكل أبعاد الموقف وبطبيعة المشاركين فيه . ففضلا عن قطعه لأى اتصال بين بنى قينقاع وأنصارهم ، فإن تبكيره بشن الهجوم على هذا النحو كانت له مزايا أخرى : منها بث الخوف فى نفوس اليهود ، وهز الثقة بأنفسهم وبقوتهم وإقناعهم بأن جرأة المسلمين ليست من فراغ ، وهو ماظهر بوضوح من رد فعلهم ، حيث بدوا وكأنما أصيبوا بالشلل ، فلبثوا داخل حصونهم لايدرون كيف يتصرفون ، على الرغم من أنه كان لديهم سبعمائة مقاتل منهم أربعمائة مدرعون . وهذا العدد يزيد على عدد المسلمين الذين حاصروا القلاع . ونسى اليهود ما سبق أن توعدوا به الرسول إذا مانشبت الحرب بينهم وبينه .

وهكذا استمر الحصار مضروبا عليهم خمس عشرة ليلة دون أن يمد إليهم أحد يد المساعدة ، ومما يرجح أن تكون قوة المسلمين أقل من قوة اليهود أن عدد المسلمين يوم بدر كان حوالى ثلاثمائة وعشرة رجال مابين مهاجرين وأنصار ، ولا نظن أنها زادت كثيرا يوم حصار يهود بنى قينقاع الذى حدث بعد مدة قصيرة من معركة بدر . فلما أيقنوا أن أحدا لن يساعدهم اضطروا إلى الاستسلام للرسول صلى الله عليه وسلم . وكان كل مافعله عبد الله بن أبى من أجلهم أن طلب من الرسول تركهم ليغادروا المدينة بعد مصادرة أموالهم ، فأخرجوا جميعا إلى أذرعات وهم يحملون أموالهم وأثقالهم وخفيف سلاحهم .

ويهمنا بهذه المناسبة أن نعلق على ماجاء ببعض الروايات التى تناولت غزوة بنى قينقاع ؛ نظرا لما اشتملت عليه من أمور لا نعتقد

بصحتها ، ونرجح — والله أعلم — أن تكون مما أضافه الرواة فيما بعد . يقول ابن الأثير : إنه لما نزل يهود بنى قينقاع على حكم الرسول صلى الله عليه وسلم أمر فكتفوا ، وهو يريد قتلهم ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول فكلمه فيهم ، فلم يجبه ، فأدخل يده فى جيب رسول الله (أى فى فتحة صدره) فغضب رسول الله وقال له : ويحك أرسلني . فقال : لا أرسلك حتى تحسن إلى موالى ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة ، وإنى والله لأخشى الدوائر . فقال النبى : هم لك ، خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم .

والقصة على هذا الوجه يفهم منها أنه لولا تدخل عبد الله بن أبى بهذه الطريقة العنيفة لكان الرسول قد قتلهم . وهذا غير صحيح فى رأينا ؛ فالرسول لم يكن ينوى قتلهم ، وإلا لقتل يهود بنى النضير فيما بعد ، وهو لم يلمح أو يصرح بانصراف نيته إلى قتلهم . كما أن نزولهم على حكمه لا يفهم منه أنه كان قد حكم بقتلهم . ولو أنه كان قد رأى أن يقتلهم ماكان تدخل عبد الله بن أبى بالذى يجعله يعدل عن قراره ، وبهذه الصورة غير الكريمة التى ستجعله يبدو كما لو كان خائفا من عبد الله بن أبى .

أما عن التصرف الذى نسب إلى عبد الله بن أبى وهو أنه أمسك بتلابيب الرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حد أن أعجزه عن تخليص نفسه أو اضطر إلى أن يطلب منه أن يتركه ، فإنه تصرف مستحيل لأكثر من سبب : فمن ناحية لايتصور صدوره عن منافق

جبان مثل ابن أُبَىّ ، اعتراه الخوف من يهودى هو كعب بن أسد القرظى لما توعد بالانتقام منه بعد وقعة بعاث ، وأخذ يقسم له إنه لم يشترك فى المعركة ويأتى إليه بالشهود يؤيدون دفاعه ، فمثله لايجرؤ على الإمساك بتلابيب الرسول ، وأمام من ؟ أمام عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وحمزة وغيرهم من الصحابة الذين كان الواحد منهم لايتردد فى التضحية بنفسه فداء للرسول — ثم أين عبد الله بن أبى من الرسول بقوته ومهابته بحيث يقدم على إتيان مثل هذا التصرف معه دون خوف أو وجل ، وهو الذى كان لاينفك يقسم على إخلاصه ، بل ويكذب فيما يتعلق بما ينسب إليه ، ويتظاهر بالبراءة وسلامة النية؟ إن أقصى مايمكن أن يفعله من كان مثل ابن أبى أن يتوسل ويرجو لا أن يتشاجر ويقسو .. والغالب أنه ظن أن الرسول سيقتل رجال بنى قينقاع فتوسل إليه أن يكتفى بطردهم إلى أذرعات .

وهكذا فشلت المؤامرة ولم يفلح اليهود وأعوانهم فى بذر بذور الفتنة بين العرب ، وشق صفهم كما كانوا يفعلون قبل الإسلام . ولكن هل استفاد اليهود من هذا الدرس ؟ كلا . فإن ماحدث زادهم حِقداً على المسلمين ، وأجج فى نفوسهم الرغبة فى الانتقام منهم ، وكان تقاعس عبدالله بن أبى عن مساعدة بنى قينقاع سببا فى لجوء يهود بنى النضير إلى المشركين فى مكة وغيرها يتآمرون معهم ضد المسلمين ويمدونهم بالمعلومات التى تفيدهم فى صراعهم معهم . فأخذوا يتجسسون على المسلمين ، ويبحثون عن نقاط الضعف لديهم ليدلوا المشركين عليها .

وكان على رأس الجواسيس اليهود سلام بن مشكم سيد بنى النضير ، الذى اجتمع بأبى سفيان بالقرب من المدينة وأبلغه بالأوضاع فى المدينة وبنقطة الضعف فى حدودها ، وحثه على انتهاز الفرصة وغزوها ومباغتة المسلمين بحيث يمكنه أن يوقع بهم الهزيمة . وعلى الفور وجَّه أبو سفيان حملة هاجمت المدينة من المكان الذى دلَّه عليه سلام بن مشكم ، فقامت بحرق النخيل وقتل رجل من الأنصار وحليف له ، فلما شعر بهم المسلمون ونهضوا لردهم بادروا بالفرار وهم يلقون جرب السويق بقصد التخفف وسرعة الهروب ؛ فلذلك سميت غزوة السويق ، وكان ذلك فى السنة الثانية للهجرة .

استخدام اليهود الشعر للطعن فى أعراض المسلمات

وحزَّ فى نفوس اليهود أن تفشل الهجمة التى شنها الكفار ، فعادوا إلى الشعر ينظمه شعراؤهم يُعَرضون فيه بالرسول وبالمسلمين والمسلمات . وتقول دائرة المعارف الإسلامية : إنه كان للشعراء فى الجزيرة العربية سلطان يفوق سلطان الصحافة فى الأزمنة الحديثة ؛ إذ كان العرب يحسبون بأن فيهم شيئا خارقا أو سحريا . وكان هناك شاعر يهودى يدعى كعب بن الأشرف ، كانت أمه من بنى النضير ، ذهب إلى مكة وأخذ يحرض قريشا على قتال المسلمين ، ثم عاد إلى المدينة ، فدخل حصنه وراح ينظم شعرا يشبب فيه بنساء المسلمين ويطعن فى أعراضهن ويشكك فى عفافهن ، حتى يهيج مشاعر الرجال ضدهن ويوقع بينهم . وعندئذ أصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بقتله ، فتطوع لتنفيذ الأمر خمسة رجال من المسلمين مضوا إلى حيث يقيم كعب بن الأشرف فى حصنه فى حى بنى النضير فأنفذوا

فيه الحكم . ولما قتلوه خافت اليهود وأصبحت المدينة ليس فيها يهودى إلا وهو يخاف على نفسه بعد أن وجدوا أن حيهم لم يعد يخيف المسلمين كما كان يخيف العرب قبل الإسلام ، وأدركوا أن أى أساءة إلى الإسلام أو المسلمين لن تمر بدون عقاب .

ومما قاله كعب بن الأشرف فى التشبيب بأم الفضل بنت الحارث امرأة العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأول امرأة آمنت بعد السيدة خديجة ، وهى أخت زوج الرسول :

أراحل أنت لم تحلل بمنقبة وتارك أنت أمَّ الفضل بالحرم
صفراء وادعة لو تعصر انعصرت من ذى القوارير والحناء والكتم
يرتج مابين كعبيها ومرفقها إذا تأتت قياما ثم لم تقم
أشباه أم حكيم إذ تواصلنا والحبل منها متين غير منجذم
إحدى بنى عامر جن الفؤاد بها ولو تشاء شفت كعبا من السقم

وغير هذا كثير مما أراد أن يسيء فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى آله

غزوة بنى النضير

ولكن يبدو أن يهود خيبر ظنوا أن بُعْدَ مدينتهم عن المدينة يحول دون وصول أيدى المسلمين إلى من يقيمون بها ، فأخذ أحد زعمائها وهو أبو رافع سلام بن أبى الحقيق يؤذى الرسول بكلامه ويحرض على المسلمين ، وقد غاظه أن يُقْتَل كعبُ بن الأشرفَ ، فصدر الأمر بقتله . وخرج خمسة رجال إلى خيبر ، فتحايلوا حتى وصلوا إليه فى حصنه فقتلوه ثم عادوا إلى المدينة .

وعلى الرغم من كل ماكان اليهود يفعلونه ، سواء فى السر أو فى

العلن، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستبعدهم من عقد الموادعة ، واكتفى بأن يطبق العقاب المناسب على من يخالف العقد . فلم يشأ أن يأخذهم جميعا بجريرة البعض منهم . ومع ذلك فإنهم لم يقدروا له ذلك ، واستمروا فى الكيد والدس والخداع والتضليل والتجسس والسعى بالوقيعة دون كلل أو ملل .

وليس من شك فى أن ماحدث ليهود بنى قينقاع ثم لابن الأشرف ولأبى رافع قد فتَّ فى عضد اليهود ، وضاعف من خوفهم من المسلمين ، وإلا بادروا إلى مساعدة قريش يوم أُحُد ، ولكنهم لم يفعلوا ، واكتفوا بإظهار الفرح والشماتة فى المسلمين لما وقعت بهم الهزيمة نتيجة لعدم لتزام بعضهم بتعليمات رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويبدو أنهم ظنوا أن ماحدث فى أُحُد قد أضعف المسلمين وجعلهم هدفا سهلا ، فلما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حى بنى النضير يستعين بهم على أداء دية رجلين من بنى عامر كان قد قتلهما عمرو بن أمية وهو يجهل أنهما أسلما ، وكان عقد الموادعة بين المسلمين واليهود ينص على أن يقدم أحد الطرفين المساعدة والعون للآخر إذا احتاج إليها ، وهو ماجعل الرسول يلجأ لبنى النضير ليقرضوه المال اللازم للدية.. لما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وأخبرهم بما جاء من أجله لم يرفضوا ، بل رحبوا ثم خلا بعضهم ببعض ، وبدلا من أن يتباحثوا فى تدبير المال المطلوب تآمروا على قتل الرسول الذى كان قد جلس إلى جانب جدار ينتظر عودتهم

بالمال ومعه أصحابه ، وانتهى رأى اليهود إلى قتل الرسول بواسطة حجر يلقيه عليه أحدهم من أعلى الجدار ، ونسوا أو تناسوا أنه نبىٌّ رسول ياتيه خبر السماء ، ولما جاء الرسول الخبرُ من السماء بما عقدوا عليه العزم بادر إلى الانصراف دون أن يخبر أصحابه ، فلما استبطئوا عودته لحقوا به فى المدينة حيث أخبرهم بما كان من اليهود ، وأصدر أمره إلى المسلمين بالاستعداد لحرب بنى النضير الذين خرقوا العهد بمؤمراتهم الدنيئة ، وعلى الفور تم جمع الجيش وسار إلى حى بنى النضير حيث تقع حصونهم فحاصرها ، وبهذا حال دون اتخاذهم الأهبة ومنع وصول أحد إليهم ممن يناصرونهم ، أو خروج أحد منهم للتدبير لفك الحصار ، وبالتالى جعلهم يعيشون فى حالة من القلق على مصيرهم ، وهو القلق الذى أخذ يزداد كل يوم مع جهلهم بما يدور خارج الحصون المحاصرة . كما منع وصول أى إمدادات إليهم ، وكانوا أينما ولوا وجوههم من فوق حصونهم تصطدم أنظارهم بالمقاتلين المسلمين وهم يحيطون بهم من كل جانب يحملون أسلحتهم ، ويقفون متربصين لكل من يحاول فك الحصار . ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود إلى الاستسلام حقنا للدماء وتجنبا للخسائر ، ولكنهم أبَوْا فأمر بقطع نخيلهم وإحراقها ، فحاصرتهم النيران وضايقهم الدخان وأيقنوا بالهلاك .

وكما حدث مع يهود بنى قينقاع من قبل ، فإن حليفهم عبد الله بن أُبَىّ لم يفعل شيئا لنصرتهم ، وكل ما أمكنه عمله أن أرسل إليهم يدعوهم إلى أن يثبتوا ويتمنعوا قائلا إنه لن يسلمهم أبدا ، وإن قوتلوا

فسوف يقاتل معهم ، وإن خرجوا فسيخرج معهم . وهو كلام لم يتحقق منه شيء ؛ فقد ظلوا محاصرين فى حصونهم فى حالة من الخوف الشديد والفزع رغم ماكان لديهم من مقاتلين لايقل عددهم عن عدد المقاتلين المسلمين وقد يزيدون ، فضلا عن السلاح والعتاد .

ولما أيقنوا أن أحدا لن يمد إليهم يد المساعدة ، لاعبد الله بن أبى ولا بنو قريظة عرضوا على النبى أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ماحملت الإبل من الأموال دون السلاح ، فأجابهم إلى ذلك فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام .

أما الذين ذهبوا إلى خيبر فكان على رأسهم عبد الله بن سلام بن أبى الحقيق ، وحيى بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق الذين لم يرضهم ما حدث لهم فعقدوا العزم على الانتقام من المسلمين ، ووضعوا من أجل ذلك خطة خطيرة تقوم على حشد كل القوى المعادية للإسلام لتوجيه ضربة قاضية إلى المسلمين بالمدينة بحيث لاتقوم لهم بعدها قائمة ، وعلى ذلك فقد أخذوا يجرون اتصالات مكثفة بالقبائل العربية فى مكة وغيرها ، كما اتصلوا بالمنافقين فى المدينة واتفقوا معهم على إضعاف جبهة المسلمين بواسطة الشائعات والأكاذيب ، يطلقونها هنا وهناك من أجل بث الشك فى نفوس المسلمين بشأن جدوى الحرب بينهم وبين الكفار الذين يفوقونهم فى العدد والعدة ، والذين سيهاجمون البيوت ويسبون النساء ويقتلون الأطفال فضلا عن الكبار ، ويستولون على الأموال ثابتة ومنقولة .

ونجح حيى بن أخطب سيد بنى النضير فى تكوين جبهة من قريش

وغطفان وبعض القبائل الأخرى ، وهكذا تحرك جيش مكون من أكثر من عشرة آلاف مقاتل متجها إلى المدينة للقضاء على مابها من المسلمين ، وفى مقدمتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتم إبلاغ عبد الله بن أبى بذلك لكى ينشط إلى تفرقة المسلمين وجعل أكبر عددهم ينفض من حول الرسول .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور المسلمين فى الأمور التى لم ينزل عليه الوحى بشأنها ، فلما علم بتحرك جيش الأحزاب نحو المدينة بادر إلى عقد اجتماع حضره الصحابة لمناقشة الأمر والتوصل إلى أفضل طريقة يواجه بها المسلمون هذا الجيش الذى لم تشهد له المنطقة مثيلا من قبل ، واقترح الرسول أن يتحصنوا فى المدينة ذاتها ويخوضوا المعركة بداخلها حيث يمكنهم حصر المشركين فى دروبها وطرقها ، وعلى الفور أعلن عبد الله بن أبى موافقته على هذه الخطة ، بل وأخذ يزينها للحاضرين ويبالغ فى وصف مزاياها وفوائدها للمسلمين ، ولكن آخرين اقترحوا أن يدور القتال خارج المدينة ، وذكروا مزاياه ، وأضاف سلمان الفارسى اقتراحه بحفر خندق على حدود المدينة فى الجانب الذى يخلو من التحصينات الطبيعية ومن حصون بنى قريظة الذين لايزالون حلفاء للمسلمين ، بحيث يعرقل تقدم الكفار نحو المدينة ويتيح للمسلمين الفرصة لقتال من يجتاز الخندق من مقاتليهم ، ولكن عبد الله بن أبى عارض هذا الاقتراح ؛ لأنه يفوت عليه فرصة الغدر بالمسلمين إذا دارت المعركة داخل المدينة حيث يمكنه أن ينضم إلى صفوف الكفار ويسلمهم المواقع التى تعهد للمسلمين بالدفاع عنها .

وعلى الرغم من عدم أخذ الرسول بوجهة نظره ، فإنه لم ييأس واستمر فى نشاطه الهادف إلى خلخلة صفوف المسلمين وجعلهم ينصرفون عن الرسول . ففى أثناء حفر الخندق كان أتباعه يهمسون فى آذان المسلمين بكلام من شأنه أن يبعث الخوف فى نفوسهم ويشككهم فى نتيجة الحرب ، بل وبلغت الجرأة ببعضهم حدا لم يسبق أن وصلوا إليه من قبل ، حيث أخذوا يشككون فى وعد الله ورسوله لهم بالنصر ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٣) بل لا يكتفون بذلك وإنما يضيفون إلى التشكيك بالأقوال الانسحاب من مواقعهم قائلين ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (٤) وهو تصرف مقصود به إصابة الآخرين بالخوف على بيوتهم وأولادهم ، وبالتالى فرارهم هم أيضا ، وبذلك تنهار جبهة المسلمين ، ويجتاحها الكفار واليهود يعملون فيمن تبقى الذبح والتقتيل إلى أن يستأصلوا شأفتهم وينتهى أمر الإسلام .

وليت الأمر وقف عند حصار الأحزاب للمدينة ، وترقبهم سنوح الفرصة لاجتياز الخندق والاشتباك مع المسلمين فى معركة ضارية ، فهذا ماكان المسلمون قد هَيَّئُوا أنفسهم لحدوثه واتخذوا الأهبة لمواجهته . ولكن الذى حدث كان أخطر من ذلك بكثير حيث

---

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ١٢

(٤) آخر الآية ١٣ من سورة الأحزاب .

فوجئوا بخيانة يهود بنى قريظة لهم وانضمامهم إلى الكفار ، مما أدى إلى انكشاف ظهر جيش المسلمين ، بل وصيرورته عرضة للهجوم عليه من جانب اليهود من بنى قريظة ومعهم يهود بنى النضير الذين جاءوا مع حيى بن أخطب من خيبر ، فضلا عن اليهود الآخرين الذين كانوا يقيمون بالقرب من المدينة ولا يستبعد انضمامهم إلى إخوانهم فى أية لحظة .

وكان حيى بن أخطب العدو اللّدود لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد نجح فى إقناع كعب بن أسد زعيم بنى قريظة بنكث عهده للرسول ، وحمله على الغدر بالمسلمين قائلا له : يا كعب قد جئتك بعز الدهور وببحر طام ، جئتك بقريش وقادتها وسادتها ، وغطفان بقادتها ، وقد عاهدونى أنهم لايبرحون حتى يستأصلوا محمدا وأصحابه ، وعاهده حيى إن عادت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن يدخل معه فى حصنه حتى يصيبه مايصيبه .

ولما انتهى خبر اتفاق كعب بن أسد القرظى وحيى بن أخطب إلى نبى الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يتأكد، فبعث سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج ، وسعد بن معاذ سيد الأوس ، ومعهما عبد الله ابن رواحة وخوات بن جبير ، وقال لهم : « انطلقوا إلى بنى قريظة فإن كان ماقيل لنا حقا فالحنوا لنا لحناً ولاتفتُّوا فى أعضاد الناس . وإن كان كذبا فاجهروا به للناس » فانطلقوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ماقيل لهم عنهم ، ونالوا من الرسول وقالوا : لا عهد له عندنا ، فشاتمهم سعد وشاتموه ، وكانت فيه حدة ، فقال له سعد بن

عبادة : دع عنك مشاتمتهم فالذى بيننا وبينهم أكثر من ذلك ، ثم أقبل سعد وسعد حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جماعة المسلمين فقالا : عضل والقارة - يعرضان بغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه- فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : أبْشِروا يامعشر المسلمين ، وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف .

وكيف لايعظم البلاء ويشتد الخوف وقد وجد المسلمون أنفسهم فجأة بين عَدُوَّيْن لَدُودَيْن عقدا العزم على استئصالهم والقضاء على الإسلام؟ إن كل ما واجهوه من أخطار لا يُقارَن بهذا الخطر ، حتى يوم أُحُد لم يكن الخطر بهذا القدر ، فهم لم يحاصروا بعشرة الاف مقاتل من تحتهم ، وبألف أو يزيد من فوقهم ، هم مقاتلو بنى قريظة والنضير . ولن يجد الإنسان وصفا لحالة المسلمين فى هذا الموقف العصيب أدق ولا أعظم من وصف القرآن الكريم لهم ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (٥) لقد أصيب المسلمون بالذهول ، واختنقت أنفاسهم حتى كادت تزهق أرواحهم لما علموا بما دُبِّرَ لهم ، ليس ذلك وحسب ، بل إن هؤلاء الرجال الذين لم يهتز إيمانهم بالله أبدا فى أى موقف مهما كان عصيبا ساورتهم الظنون بشأن تأييد الله لهم وغلب على ظنهم أنه قد تخلى عنهم . ومما زاد الطينَ بلَّةً ذلك النشاط المحموم

---

(٥) الآيتان ١٠ و١١ من سورة الأحزاب

الذى قام به المنافقون وسط المسلمين لتثبيط عزائمهم وتحطيم معنوياتهم : فمنهم المولول النادب لحظه وحظ أولاده ، ومنهم الهارب يتعلل بالخوف على بيته وأولاده ولقد ندد الله تعالى بهم فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (٦).

(٦) الآيات من ١٥ إلى ١٩ من سورة الأحزاب

لقد كانت محنة شديدة بكل المقاييس . ولم يكتف يهود بنى قريظة بالانضمام إلى الأحزاب وتهديد ظهر جيش المسلمين ، بل أطلقوا عملاءهم خلف المسلمين يتجسسون عليهم للتعرف على ترتيباتهم ويخيفون النساء والأطفال وكبار السن من الرجال الذين تركهم المسلمون وراءهم حتى لايتعرضوا للإصابة فى حالة نشوب المعركة . ومما يروى فى ذلك أن السيدة صفية عمة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت فى حصن حسان بن ثابت الشاعر ، وكان حسان فيه مع النساء؛ لأنه كان جبانا، وبينما هى تظل خارج الحصن إذ رأت يهوديا يطوف بالمكان متجسسا فطلبت من حسان أن ينزل إليه ليقتله حتى لا يدل على عورات المسلمين ، فامتنع حسان ، وعندئذ أخذت عمودا ونزلت إلى اليهودى فباغتته وقتلته ، ثم رجعت إلى حسان فطلبت منه أن ينزل ليأخذ سلب اليهودى؛ لأنها شعرت بحرج من فعل ذلك ولأنه رجل ، فأجابها حسان بأنه ليس به حاجة إلى سلب الجاسوس اليهودى.

وتتابعت الأيام والحصار مستمر ، الكفار من الأمام واليهود من الخلف ، والأحوال تزداد سوءاً، وأخذ الرسول العظيم يفكر ويدبر ويدعو الله أن يفرج الكرب ، ويذهب الخوف والفزع من نفوس المسلمين ، وفى نفس الوقت يحاول أن يأخذ بالأسباب ليعلم المسلمين أن النصر والنجاح والفلاح لاتكون إلا بالعمل والبذل والتضحية وإعمال الفكر ، وأن الاسلام ليس تصريحاً أبدياً للمسلمين باحتكار النصر والرفعة والثروة والجاه دون جهد أو عناء . وكان مما فعله أن تفاوض مع غطفان فعرض أن تنسحب من الحِلْف مقابل أموال تُدفَع

لها . وكما هى عادة الرسول فى كل ماليس بوحى ، فقد شاور أصحابه فاعترضوا فأوقف المفاوضات . وإن كان مجرد إجرائها قد أحدث أثرًا سيئا فى نفوس الحلفاء حيث تسرب الشك إلى نفوس زعماء قريش فى مدى إخلاص غطفان للهدف الذى جاءوا من أجله ، كما أن غطفان كانت قد ملت من الانتظار دون شن هجوم على المسلمين ، فى حين أن اليهود كعادتهم - ينتظرون أن تبدأ الأحزاب الهجوم ، وتتلقى الصدمات الأولى بما تحتمله من خسائر فى الأرواح والعتاد ، ثم يتحركوا هم ليصولوا ويجولوا فى ميدان المعركة التى أوشكت أن تنتهى فيمعنوا قتلا فى المسلمين وسلبا لأموالهم ، وبعد ذلك يتحدثون عن بطولات مقاتليهم وبلاء جيوشهم .

ولما استبطأتهم الأحزاب بعثت إليهم بوفد يحثهم على البدء فى الهجوم على مؤخرة جيش المسلمين ، ولكنهم تعللوا بأن اليوم سبت لايعملون فيه شيئا ، وطلبوا إمهالهم إلى يوم آخر على أن تعطيهم الأحزاب رهائن من رجالها ضمانا لعدم تخليها عنهم وتركها إياهم للرسول صلى الله عليه وسلم لينتقم منهم . وكان الذى اقترح عليهم ذلك رجل من المسلمين اسمه نعيم بن مسعود ، لم يكونوا يعلمون بإسلامه كما كان موضع ثقتهم . كذلك قام نعيم فى الوقت نفسه بإبلاغ قريش وغطفان أن اليهود يسيئون الظن بهم وأنهم لذلك سيطلبون منهم عددا من الرهائن لكى يسلموهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم كدليل على بقائهم على العهد وإخلاصهم للرسول وغدرهم بالكفار . فلما أبلغ اليهود الأحزاب بطلبهم الخاص

بتسليمهم الرهائن صدّقوا ما قاله لهم نعيم ، فرفضوا الاستجابة لطلب اليهود ورفض اليهود بالتالى دخول الحرب .

عندئذ ، وبعد أن أخذ المسلمون بالأسباب وصمدوا وتحملوا وثابروا ، تدخلت إرادة الله العظيم الرحيم بعباده فانطلقت الرياح من عقالها عاصفة تجتاح فى طريقها كل شيء حتى القدور الثقيلة دفعتها الرياح كما لو كانت قطعا من الورق وتطايرت الخيام فى الهواء ، وأجفلت الخيل وثارت الإبل واختلط الحابل بالنابل ، فانتقل الفزع من معسكر المسلمين إلى معسكر الكفار وارتفع الصراخ ، واختلطت النداءات ، فلا أحد يدرى إلى أين حملته الرياح ولا أين أصحابه ، وتبدد جيش الكفر وولى هاربا وهو لايصدق أنه قد نجا ، وعادت قريش تجر أذيال الخيبة والعار ، وكانت غطفان قد سبقتها مطاطئة الرأس ذليلة تصب اللعنات على حيى بن أخطب وعلى اليهود الذين استدرجوها إلى هذه الكارثة . أما اليهود من بنى قريظة وبنى النضير فقد ارتدوا إلى حصونهم بمقاتليهم الثمانمائة ، يجرون أذيال الخيبة يرتعدون فَرَقاً وخوفا مما سوف يصيبهم نتيجة لخيانتهم .

وفيما يتعلق بعدد المقاتلين المسلمين الذين واجهوا الأحزاب واليهود ، فإن الآراء قد اختلفت بشأنه : فهناك رأى يذهب إلى أنه كان سبعمائة مقاتل ، وهناك رأى آخر يذهب إلى أن عددهم كان ثلاثة آلاف مقاتل ، فضلا عن الآراء الأخرى التى تذكر أعدادا تتراوح بين الرقمين السابقين . وفى رأينا أن القول بأن عدد المقاتلين المسلمين كان ثلاثة آلاف فيه مبالغة شديدة ، ثم إن الفرق بين

السبعمائة والثلاثة الآلاف فرق كبير جدا ، ولايعقل أن يكون البعض قد لاحظ أن جيش المسلمين كان سبعمائة ، فى حين يلاحظ البعض الآخر أنه كان ثلاثة آلاف ؛ لأن الفرق بين الرقمين من الضخامة بحيث لا تخطئه العين. وعموما فإن ملاحظتنا على العدد الذى ذكره المؤرخون من الفريقين تستند إلى الأسباب الآتية :

أولا - أن عدد المسلمين الذين اشتركوا فى غزوة أحد كان سبعمائة ، ولما كانت المدة التى انقضت بين هذه الغزوة وبين غزوة الخندق حوالى عام ، فإنه من غير المتصور أن يكون عددهم قد زاد بهذا الشكل ليصل إلى ثلاثة آلاف .

ثانيا : أنه طبقا لما قيل من أن توزيع العمل فى حفر الخندق قد جرى على أساس أن لكل عشرة رجال من المسلمين أربعين ذراعا ، مما يعنى أن طول الخندق كان اثنى عشر ألف ذراع وهو مايساوى تسعمائة ألف سم (الذراع = ٧٥ سم) أو ٩٠٠٠ متر ، أى ٩ كم ونرجح أن هذا كان طول الجهة من المدينة الخالية من العوائق الطبيعية والحصون ؛ لأنه لايعقل أن يكون قطرها ، المدينة تسعة كيلو مترات فقط ، خاصة إذا لاحظنا أنها كانت مكونة من أحياء تفصل بينها فى بعض الأحوال أميال . والذى نرجحه أن الذين اشتركوا فى حفر الخندق لم يكونوا كلهم من المقاتلين ، وإنما اشترك معهم آخرون ، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار اتساع الخندق وعمقه وطبيعة الأرض وغير ذلك ، وأيضا المدة التى استغرقها الحفر ، وكذلك عدد ساعات العمل .

ثالثا : أن غزوة خيبر ، التى سيأتى ذكرها فيما بعد ، على خطورتها ؛ لبعدها من ناحية ، ولكونها مستعمرة يهودية حصينة كل سكانها من اليهود — لم يزد عدد المقاتلين المسلمين الذين اشتركوا فى غزوها على ١٤٠٠ راجل و٢٠٠ فارس . وكان بينها وبين الأحزاب أكثر من عام ، وبينها وبين أُحُد أكثر من عامين ، أى أنها مدة كافية لأن يتضاعف المسلمون ، خاصة بعد الانتصار الكبير فى غزوة الأحزاب ثم فى بنى قريظة وفى غيرها ، فضلا عن صلح الحديبية .

ومع ذلك ، وحتى لو أننا افترضنا أن عدد المسلمين الذين تصدوا للأحزاب كان قد بلغ فى أول الأمر ثلاثة آلاف مقاتل ، وهو ماذكره البعض — فإن هذا الرقم مالبث أن انخفض إلى الرقم الآخر ، وهو السبعمائة ، نتيجة لفرار المنافقين والخائفين الذين تأثروا بدعايات أتباع عبد الله بن أُبَىّ بن سلول . وهذا ما أردنا أن نبينه بالنسبة لما لاحظناه ويلاحظه من يقرأ التاريخ الاسلامى من تفاوت كبير بين البيانات ، وبخاصة ما كان منها له علاقة بالغزوات والمعارك .

ثم نأتى إلى آخر معركة ، أو غزوة من الغزوات التى استهدفت طرد اليهود من مستوطناتهم فى المدينة ، وهى غزوة بنى قريظة . ويلاحظ من يقرأ ماكتبه المستشرقون والمؤرخون الغربيون عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم — اهتمامهم الشديد بهذه الغزوة التى استغلوا ما انتهت إليه للإساءة إلى الإسلام والمسلمين ، حيث لم يكفوا عن التنديد بما حدث من قتل المقاتلة من اليهود ، وكان عددهم سبعمائة ، وفى قول آخر ثمانمائة ، وتباروا فيما بينهم فى إظهار العطف

والحزن والأسى لمقتل هذا العدد الكبير مما يوحى لمن يقرأ لهم أنهم أناس جبلوا على الرحمة ، وطبعوا على الشفقة ، وليسوا قتلة سفاحين تقطر أيديهم وأفواههم بدماء الملايين من الأبرياء الذين غزوا بلادهم ، وعاثوا فيها فسادا ونهبوها بطريقة بشعة واستنزفوا ثرواتها ، وهاهم يعيشون فى رغد من العيش بفضل الثروات التى سرقوها ، فى حين أن أصحاب هذه الثروات الحقيقيين يعانون من الفقر والجوع والتخلف .

لقد تجاهلوا عن عمد ماذكرناه حالا من تصرفات يهود بنى قريظة ، وما كان سيؤدى إليه من قضاء على الإسلام وإبادة للمسلمين ، ومضوا يذرفون الدموع على القتلى الأبرياء أجداد العصابات الصهيونية المجرمة التى أعملت الذبح والتقتيل فى الفلسطينيين الأبرياء العزل الذين كانوا يقيمون فى قراهم آمنين يظنون أن جنود بريطانيا التى كانت عظمى سيحمونهم بموجب مايفرضه عليهم قرار الانتداب ، ولكنهم تركوهم ليقعوا فريسة سهلة فى أيدى القتلة السفاحين ، الذين لم يتورعوا عن بَقْرِ بطون النساء الحبالى ، وتمزيق أجساد الأطفال الصغار ، وتدمير البيوت ، ونهب محتوياتها فى بطولة فريدة ليتهم أظهروا ربعها أو أقل من ذلك أمام هتلر وزبانيته .

ولكن هكذا هم اليهود فى كل زمان ومكان ، يعضون الأيدى التى تمتد إليهم بالمساعدة ، ويستأسدون على الضعفاء والنساء والأطفال ، ويتظاهرون بالشجاعة والجرأة أمام من يفوقونهم جبنا ممن اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة . ولْنَرَ ما فعلوه يوم غزاهم الرسول

صلى الله عليه وسلم فى آخر مستوطناتهم فى المدينة وهو حى بنى قريظة.

غزوة بنى قريظة .

بعد عودة المسلمين من الخندق وهم يحمدون الله ويثنون عليه لإنقاذه لهم من الكارثة المروعة التى كادت تصيبهم بسبب تصرف بنى قريظة الإجرامى — جاء الأمر من السماء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بغزوهم ؛ عقابا لهم على خيانتهم ، فخرج الرسول على الناس وقد ارتدى ثيابَ الحرب ، وحمل سلاحه ، وكلف مناديا ينادى : من كان سامعا مطيعا فلا يُصَلِّيَنَّ العصر إلا فى بنى قريظة .

وهنا تَعنُّ لنا ملاحظة على ماورد بكتب التاريخ الإسلامى من أوصاف بشأن الغزوات والمعارك التى خاض المسلمون غمارها ، فهم يُظهِرون الأمر كما لو كان هجمة عشوائية شبيهة بالتظاهرات التى يقوم فيها الغوغاء بإلقاء الحجارة على الشرطة ، فى عملية كَرٍّ وفَرٍّ غير منظمة ، بل تغلب عليها الفوضى والارتجال ، وتسودها الفردية التى لاتخضع لأى ضوابط ، ولاتلتزم بأى خطة .

وهو ما نلاحظه فى وصفهم لغزوة بنى قريظة التى قالوا بشأنها : إن الرسول صلى الله عليه وسلم تلقى الأمر من السماء بواسطة جبريل عليه السلام بعد عودته من غزوة الخندق مباشرة ، بالهجوم على بنى قريظة إلى آخر ماذكرناه فى هذا الشأن . ويقولون : فانطلقوا ، أى المسلمون ، إلى أن بلغوا حى بنى قريظة

فضربوا عليه الحصار ، وبطبيعة الحال فإن الصورة التى ستتبادر إلى أذهاننا هى انطلاق جمع غفير من المسلمين يتراوح مابين سبعمائة وثلاثة آلاف مقاتل ، وهم الذين قيل إنهم كانوا يواجهون الأحزاب عند الخندق - إلى حيث يقيم بنو قريظة ، ولا ندرى كيف كان سيرهم ، أو ما سموه انطلاقهم ؟ أكَانَ مشيا عاديا متهاديا ، أم كان هرولة ؟ أم كان جريا ؟ دون أن يحسبوا حسابا لجيش بنى قريظة المكون من ثمانمائة مقاتل أشداء ، أخذوا الأهبة - ولاشك - بعد انسحاب الأحزاب وتوقعهم أن يتحول المسلمون إليهم لينزلوا بهم العقاب الرادع ـــ أن يشن عليهم هجوما مباغتا قبل وصولهم إلى حصون بنى قريظة ، أو أن يكلف بعضا منهم مناوشة المسلمين فى سيرهم أو جريهم والانقضاض على أطرافهم !! فى حين أنهم يسيرون بدون نظام أو ترتيب .

ولست أخفى ماشعرت به دائما ، وأنا اقرأ ماورد فى الكتب العربية بشأن الغزوات من دهشة شديدة للسهولة غير العادية التى اتسم بها إحراز المسلمون للنصر فى معارك تغلب عليها السذاجة والارتجال ، ويغيب عنها التنظيم وتفتقر إلى الإعداد المسبق والتخطيط وكأنها مشاجرة فى حارة ، أو خناقة فى مباراة من مباريات كرة القدم . هذا فى الوقت الذى يولى فيه هذا المؤرخ أو ذاك أمورا أخرى قليلة القيمة أو عديمة الأهمية اهتماما شديدا .

كذلك فقد نسى المؤرخون ، فى حديثهم عن انطلاق المسلمين إلى ينى قريظة ، المدينة ومن بها ، حيث يقيم عدد كبير من المنافقين والذين فى قلوبهم مرض ممن لايؤمن جانبهم ، وهم الذين ذمهم الله

تعالى فى سورة الأحزاب لما بدر منهم فى غزوة الخندق التى لم يكن غبارها قد هدأ بعد ، ولاقالوا لنا ماذا فعل الرسول عندما مضى لغزو بنى قريظة؟ وهل صحبوه أو رفضهم واستبعدهم؟ وهل حسب حسابا لما يمكن أن يفعله ضعاف النفوس والمنافقون أثناء غيابه ؟ بل هل فكر أصلاً فى المدة التى سيغيبها عن المدينة فى هذه الغزوة ؟ وسوف نرى كيف أن كثيرين من الأوس – فضلا عن أتباع ابن سلول – كانوا يعطفون على بنى قريظة ، ولايرغبون فى توقيع العقاب العادل عليهم ، فهل كان الرسول مدركا لذلك ؟ وماذا فعل وكيف تصرف قبل أن يترك المدينة إلى حصون بنى النضير؟

هذا ماسكت عنه المؤرخون واكتفوا بالإفاضة فى الحديث عن أمور ثانوية لاتقارن بما ذكرناه .

والواقع أن التاريخ الإسلامى بحاجة إلى أن تعاد كتابته ، وفقا للأصول العلمية الحديثة ، بحيث نتجنب الحشو والمبالغة فى الاهتمام بالموضوعات الثانوية والبعد عن الإفاضة فيما لايعد من التا ريخ مثل جواز أداء البعض لصلاة العصر قبل بلوغ بنى قريظة ، فهذا من الأمور التى لاتدخل فى مفهوم التاريخ ، وبالتالى تستبعد منه وتوضع فى مكانها من العلوم الأخرى ، ومثلها كثير تَمَّ حَشْرُه فى كتب التاريخ حتى تضخمت بلا داع ، فى حين أُهْمِلَتْ أمورٌ على جانب كبير من الأهمية مثل الغزوات والمعارك ، على الرغم من أن ماجرى فيها يُعَدُّ من الدروس الهامة التى يجب على المسلم أن يعيها جيدا ، هذا فضلا عن أن إبرازها فى صورة صحيحة ودقيقة يجعل المسلم لايستهين

بما واجهه السلف العظام من صعوبات وماتحملوه من الام ومعاناة من أجل أن يحافظوا على الدعوة سليمة قوية فاعلة .

وقد يقول البعض ممن لاتهمهم مثل هذه الأمور ولا يكفون عن ترديد العبارات التى تحمل معنى التواكل وعدم بذل الجهد والعناية اعتمادا على الله كما يقولون ، قد يقول هذا البعض : إن المسلمين اندفعوا فى غمرة الحماس إلى تلبية دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بالانطلاق إلى بنى قريظة لإيمانهم بأن هذا هو ما أراده الله ، وبالتالى فإنه سبحانه وتعالى سيحميهم من أى أضرار قد تصيبهم لأىّ سبب كان ، كأن يكون اليهود قد نصبوا لهم كمينا أو كمائن هنا أو هناك أو قيامهم بشن هجوم مفاجىء على جموع المسلمين قبل أن يصلوا إلى حيهم .

ولكن أصحاب هذا القول يفوتهم أمر على جانب كبير من الأهمية ، وهو أن الله تعالى الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، أمره وأمر المسلمين أن يأخذوا بالأسباب ، وألا يتواكلوا فقال لهم : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (٧).

ولقد رأينا كيف أنهم لما أهملوا فى أُحد ، وتخلت كتيبة الرماة عن

---

(٧) الآية ٦٠ من سورة الأنفال .

موقعها طمعا فى الأسلاب ، مُخالِفةً بذلك الأمر الذى أصدره الرسول إليها بعدم ترك موقعها مهما كانت الأسباب ، حتى وإن رأتهم يهزمون – حلت الهزيمة بالمسلمين ، وأى هزيمة ؟ وما كان الله لينصرهم وقد أهملوا واستخفوا وخالفوا . وما ذلك إلا لأن الله يريد للمسلمين أن يكونوا أقوياء ، أذكياء ، يتميزون بالحصافة وبُعْدِ النظر ، وبالوعى والفطنة وحسن التصرف ، والمهارة لا أن يتخذوا من الإسلام مطية لبلوغ أهدافهم أو حِصْناً يَرُدُّ عنهم شر أعدائهم دون أن يبذلوا جهدا أو يتحملوا عناء ، أو يُعِدُّوا أنفسهم لمواجهة أعدائهم مفضلين الترف والحياة اللينة على الكد والعرق والتضحية من أجل حياة كريمة آمنة حرة ، يملكون فيها زمام أمورهم ، ولا يخافون من شرذمة حقيرة كاليهود أن ينقضوا عليهم ، ولا يخضعون لمن يناصبون دينهم العداء ويُكِنُّون لرسولهم الكراهية والبغضاء .

ومما وجدناه متناثرا فى بعض الكتب تبين لنا أن الأمر لم يكن كما يصوره المؤرخون هجمة عشوائية ، أو مظاهرة فوضوية تنتهى بإحراز المسلمين للنصر على أعدائهم ، وإنما تنظيم متقن وتخطيط محكم وإعداد مسبق يأخذ فيه الرسول بعين الاعتبار كافة الاحتمالات ، ولا يترك شيئا للصدفة . فقد كان له عيونه ، وهم رجال أمناء محل ثقة ينقلون إليه مايريد أن يعرفه عن أعدائه .. وكان منهم المقيمون وسط الأعداء بصفة دائمة والذين يقومون بمهمة واحدة ، كما كان لديه فريق للاستطلاع مُهِمَّتهُ الاقتراب ، وإن أمكن التسلل إلى صفوف الأعداء لمعرفة عددهم وعدتهم وما اتخذوه من تدابير .

كذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يوزع المهام على أصحابه ، ولايترك الأمر فوضى : فهناك المسئول عن السلاح ، والمسئول عن الخيل ، والمسئول عن الإمدادات . كما كان له حرسه . ولم يكن الجيش - كما يصوره المؤرخون - مجموعة من الناس تنطلق كيفما كان ، وإنماكان يسوده النظام والانضباط ويأخذ بالتخصص : فهناك المشاة والرماة والفرسان ، ولكل دوره المحدد . والجيش نفسه يتكون من ميمنة ، وميسرة ، ومقدمة ، وساقة ، فضلا عن القلب ، وهى خمسة أقسام ؛ لذلك سمى خميسا . وكانت هناك فِرَق للاقتحام ، وأخرى للهجوم الرئيسى ، وثالثة للتحرك فى أعقاب المهاجمين مهمتها تطهير الميدان من فلول الأعداء . هذا بالإضافة إلى حامل الراية والأمير ، ومن يخلف الأمير إذا هلك هذا ، وغير هذا كثير مما لم يحظ بعناية المؤرخين .

وعلى هذه الصورة وبهذا الترتيب المحكم جرى ضرب الحصار على حى بنى قريظة الحصين ، فأحاط المسلمون بحصونهم لايسمحون لأحد بالدخول أو بالخروج . والمثير للدهشة ذلك الإصرار من جانب المؤرخين على القول إن المسلمين ضربوا الحصار على حصن بنى قريظة مما يجعل القارىء يفهم أنه لم يكن هناك غير حصن واحد ركّز عليه المسلمون كلّ جهدهم حتى نجحوا فى الاستيلاء عليه أو أرغموا من كانوا به على الاستسلام .. وهذا خطأ بلاشك ؛ إذ أن هناك فرقاً كبيرا بين أن يوجه الهجوم ويضرب الحصار على حصن واحد أو على عدد كبير من الحصون .

وهو الفرق الذى ينعكس على الخطة الموضوعة للهجوم وتوزيع المهاجمين وتشكيل القوة المهاجمة واتخاذ الاحتياطات اللازمة إزاء مايمكن أن يحدث من تعاون أو اتصال بين الحصون بعضها وبعض أو بينها وبين أعوان اليهود من المنافقين ، ثم هناك الجهد المطلوب بذله ، والوقت الذى يستغرقه الحصار ، إلى غير ذلك من الأمور الهامة . ويقول ابن كثير : كانت بنو قريظة - وهو طائفة من اليهود - لهم حصن شرقى المدينة - وهم قريب من ثمانمائة مقاتل ! فأى حصن هذا الذى يتسع لهذا العدد من المقاتلين ؟ وهو قول يخالف ماجاء فى القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ [8] يعنى حصونهم ، ومنه سميت صياصى البقر ، وهى قرونها ؛ لأنها أعلى شىء فيها ، فهى إذن حصون عالية قوية جيدة التسليح ويقول توماس أرنولد : إن المدينة كانت فى زمن النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) تضم عددا عظيما من اليهود يقيمون فى قلاع حصينة .

وإذا كان عدد المقاتلين اليهود ثمانمائة مقاتل ، فمعنى ذلك أن هذه القبيلة كانت مكونة من حوالى ثلاثة آلاف مابين رجال ونساء وأطفال لا يتصور أن يقيموا جميعا فى حصن واحد، خاصة أن الحصون فى ذلك الوقت ، وفى الحجاز على سبيل التحديد - لم تكن كبيرة بحيث تتسع لإقامة عدد كبير من الناس لمدة طويلة يمارسون

(٨) الآية ٢٦ من سورة الأحزاب

حياتهم العادية من نوم وطعام وشراب وقضاء حاجة وغير ذلك ، كما حدث حين حاصر المسلمون يهود بنى قريظة لمدة خمسة وعشرين يوما ، وهو ماتذكره الروايات المختلفة .

لذلك نرجح أن يكون عدد حصونهم عشرين حصنا ، وهذا التقدير لم يقم على أساس مايمكن أن يتسع له الحصن من أفراد ؛ فهذه الحصون لم تكن مبانى عامة أُنشِئتْ بغرض حماية كل السكان من اليهود ، وإنما كانت مساكن لأصحابها من ذوى الجاه والثراء تأخذ شكل الحصن لكى يحتموا بها ومعهم أموالهم وثرواتهم ، أما بقية اليهود ممن ليسوا على ثراء أولا يملكون مايخشون عليه فقد كانوا يقيمون فى بيوت بنيت من مواد محلية كاللبن وسعف النخل وسوقه ، ومن مواد أخرى كالخشب يستخدمونه للنوافذ والأبواب ، وهو من النوع الصلب الثقيل . وغالبا ماكانت الحصون تقام بطريقة تمكن المقيمين فيها من توفير الحماية لسكان البيوت الذين كانوا يتركون بيوتهم ليختبئوا فى هذه الحصون إلى أن يزول الخطر .

ولايذكر لنا المؤرخون المسلمون شيئا مما حدث بعد أن ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم الحصار على آخر مستوطنة يهودية بالمدينة ، ولا ما جرى من الثمانمائة مقاتل يهودى ، وإنما اكتفوا بالقول إن الحصار استمر خمسة وعشرين يوما فى قول ، وشهراً كاملاً فى قول ، وكأن الفرق بين القولين – وهو خمسة أيام من المعاناة والقلق – ليس بذى شأن ، وكأن الفريقين ظلا ساكنين ينظر أحدهما إلى الآخر : المسلمون حيث يقفون حول الحصون ، واليهود من فوق

الأسوار ومن خلال نوافذ حصونهم ، إلى أن اعتراهم الملل ، ونال منهم الخوف والفزع ، فطلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم بواحد من المسلمين هو أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصارى ، من الأوس ، لكى يستشيروه ، فأرسله ، فلما رأوه قام إليه الرجال ، وبكى النساء والصبيان ، فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح .

وليس من شك فى أن الأمركان على خلاف ذلك ، فقد حاول اليهود أن يردوا المسلمين عن حيهم ويفكوا حصارهم لحصونهم ، ولاشك أيضا فى أن يهود بنى النضير حاولوا أن يقدموا لهم المساعدة ، فقد كان زعيمهم حُيَىُّ بن أخطب محاصرا هو الآخر منذ انسحاب الأحزاب . بل ولا نستبعد أن يكون بعض المنافقين والسذج ، أو مَن كانوا يحسنون الظن باليهود من الأوس حلفاء بنى قريظة ، ومن الخزرج أنصار عبد الله بن أُبَىّ قد رَقُّوا لحالهم وحاولوا أن يفعلوا شيئا لأجلهم . ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل أمام إصرار المسلمين على هزيمة بنى قريظة وإنزال العقاب الرادع بهم جزاء خيانتهم وغدرهم .

ومما يدل على وجود ميل لدى بعض الأوس نحو بنى قريظة ، ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم من ترك الحكم على بنى قريظة لزعيم الأوس سعد بن معاذ ؛ فقد أحاط الأوس بالرسول يقولون له : افعل فى موالينا مثلما فعلت فى موالى الخزرج ، يعنى بنى قينقاع وبنى النضير ، فقال لهم : ألا ترضون أن يحكم فيهم سعد بن معاذ ؟

قالوا : بلى . وهنا يثور تساؤل بشأن السبب أو الاسباب التى جعلت الأوس يطلبون من الرسول أن يعامل بنى قريظة كما عامل بنى قينقاع ، على الرغم من الفارق الكبير بين مافعله هؤلاء وما فعله أولئك : فبنو قينقاع دبروا مؤامرة لإثارة الفتنة بين العرب ، وذلك عندما كشف أحدهم عن عورة المرأة المسلمة ، فى حين أن بنى قريظة فعلوا ماهو أخطر من ذلك ، حيث نقضوا العهد مع الرسول ، وتحالفوا مع المشركين فى أخطر غزوة وهى غزوة الأحزاب ، فأصبحوا مصدر تهديد حقيقى وهم فى مواقعهم فوق المسلمين ، فلو أن الحرب وقعت واشتركوا فيها فعلا لتمكنوا هم والمشركون من سحق المسلمين وقتل الرسول صلى الله عليه وسلم . فهل كان إلحاح الأوس فى المطالبة بمعاملة بنى قريظة مثل معاملة بنى قينقاع وبنى النضير سببه ألا يكون وضعهم عند الرسول أدنى من وضع الخزرج ، وهو أمر يعتبرونه ماساً بكرامتهم وشرفهم ، بغض النظر عن التفاوت فى الذنب ، خاصة أنه قد جاء فى تفسير القرطبى أنهم قالوا : يارسول الله ، وقد علمت أنهم حلفاؤنا ، وقد أسعفت عبد الله بن أبى بن سلول فى بنى النضير حلفاء الخزرج ، فلا يكن حظنا أوكس وأنقص عندك من حظ غيرنا ، فهم موالينا - أو أن مطالبتهم بأن ينال بنو قريظة نفس المعاملة التى نالها بنو قينقاع يرجع إلى العاطفة والوفاء ، حيث سبق لبنى قريظة أن أوهموهم بأنهم يناصرونهم ضد الخزرج ، إيمانا منهم بقضيتهم ، وليس بدافع الرغبة فى تأجيج الخلافات بينهم .

وهكذا نلاحظ أن البعض ممن أسلموا كانوا لايزالون يولون

الأمور ذات الطبيعة العصبية ، اهتماما يفوق اهتمامهم بالمصالح العليا لجماعة المسلمين . ومع ذلك فإن الرسول الكريم كان يعاملهم برفق ، ولايحاول أن يصدم مشاعرهم ، أو أنه كان يجد أن مستواهم الفكرى البسيط لا يحتمل أن يدخل معهم فى حوار ليبين لهم الفرق بين مايريدونه استنادا إلى النعرة القبلية ، ومافيه مصلحة الإسلام والمسلمين . وهكذا كانت معارك الرسول ليست مع أعداء الإسلام من مشركين ويهود فقط ، بل ومع بعض المسلمين الذين لم يرتقوا بفكرهم إلى مستوى الأحداث .

ولم يكتف الأوس بأن عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سعد ابن معاذ بالحكم على اليهود ، بل ترقبوا وصول سعد من المدينة إلى حيث يقع حى بنى قريظة على أميال منها ، ولاذوا به يقولون له : ياسعد ، إنهم مواليك ، فأَحْسِنْ فيهم ، ويرقِّقونه عليهم ويعطفونه .

أما اليهود فقد قالوا لسعد يومئذ : يا أبا عمرو ، حلفاؤك ومواليك ، وأهل النكاية [٩] ومن قد علمت .

ولكن كل هذه التوسلات لم تجد ، فإن سعدا نحَّى مشاعره جانبا ، ولم يفعل كما فعل عامة الأوس ، فنظر فقط إلى مافعلوه وما كان سيترتب عليه من نتائج وآثار بالغة الخطورة ، خاصة أنه هو

(٩) يقال : نكيت فى العدو نكاية : إذا أكثرت فيهم الجراح والقتل . يصفهم بالبأس والشدة .

نفسه قد حذرهم من مغبة أعمالهم ، فشتموه وأساءوا إلى الرسول ، فكان أن حكم أن تقتل المقاتلة ، وتسبى الذرية والنساء ، وتقسم الأموال . فضربت أعناقهم وكانوا ستمائة أو سبعمائة ، وقيل مابين سبعمائة وثمانمائة ، وفيهم حُيَيٌّ بن أخطب سيد بنى النضير ، وكعب ابن أسد سيد بنى قريظة .

ولقد كشف حُيَيٌّ بن أخطب فى الكلمة التى قالها قبل أن يقتل ما يثبت أن العفو عنه وعن بقية اليهود ماكان ليؤدى إلى عدولهم عن موقفهم من الإسلام ومن المسلمين ، وإنما كانوا سينسحبون من المدينة ليعيدوا تنظيم صفوفهم ويدبروا لغزوة أشد خطورة وأكثر إحكاما من غزوة الخندق التى فشلت ، فقد قال يوجه كلامه للرسول صلى الله عليه وسلم : والله ما لمت نفسى فى عداوتك .

وهكذا حاقت الهزيمة بثالث كبريات القبائل اليهودية فى المدينة بنى النضير ونزل فيهم قول الله تعالى :

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ (١٠).

---

(١٠) الآيتان ٢٦ و٢٧ من سورة الأحزاب .

وقال بعض المفسرين إن « أرضا لم تطئوها » هى « خيبر » التى كانت أكبر مستوطنة يهودية فى الحجاز لايقيم بها غير اليهود . وعلى الرغم من أن غزوها وقهر من كانوا بها يلى فى الترتيب ، فإننا سنؤجل الحديث عنها إلى الفصل الثالث والأخير ؛ نظرا لارتباط فتحها بموضوع هام جدا هو زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة صفية بنت حُيَيٍّ بن أخطب ، وماقيل فيه ، أى فى هذا الزواج من آراء بعيدة كل البعد عن الصحة ، وسنستمر مع بقية المستوطنات اليهودية الأخرى التى أخضعها المسلمون وقضوا على سيادة اليهود عليها .

لاشك أن أخبار الغزوات التى غزاها الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود ، بالطريقة التى وردت بها فى كتب السيرة والتاريخ الإسلامى – تطمس الرابطة التى تربط هذه الغزوات بعضها ببعض ، كما أنها تطمس الباعث الحقيقى عليها ، والهدف الحقيقى الذى استهدفته ، فتظهرها كما لو كانت أعمالا عسكرية متفرقة جرت بطريقة عشوائية ، أو كيفما اتفق . وهذا غير صحيح على الإطلاق .

ذلك لأن المعركة مع اليهود لم تكن تقل أهمية عن المعركة مع قريش والمشركين عموما ، بل ربما تفوقها لأسباب عديدة : منها : أن المشركين كانوا عربا ، أى أصحاب البلاد ، على خلاف اليهود الذين رأينا كيف غزوا الجزيرة العربية واستوطنوا الكثير من مناطقها الهامة وأقاموا فيها دويلات تملك الثروة والقوة والسلطان .

كذلك، فإن ترك العرب الشركَ واعتناقهم الإسلام، إذا حدث، مع بقاء اليهود الدخلاء، وهم أصحاب دين يقوم على التوحيد أيضا، ولو فى صورة مشوهة بعد أن عبث اليهود بالتوراة - كان سيؤدى إلى صراع بين الدينين لايعلم مداه إلا الله، ومن يقرأ تاريخ الدعوة الإسلامية فسيرى كيف أن اليهود لم يكفوا عن مناوأة الرسول صلى الله عليه وسلم وتكذيبه وإشاعة الشكوك والريب حول دعوته. ليس ذلك وحسب، بل إن كثيرين منهم ممن اعتنقوا الإسلام كانوا لايتورعون عن التشكيك فى نبوة الرسول، وبالذات أثناء غزوة تبوك.

ومن الأسباب أيضا، أن بقاء اليهود بين ظَهْرَانَى العرب كان من شأنه أن يتيح لهم الفرصة لممارسة سياستهم الهادفة إلى تأليب العرب بعضهم على بعض ببعث الخلافات القديمة من مرقدها، وخلق الصراعات بين القبائل العربية، وهو ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا أشد الحرص على منعه بكل السبل، حتى لاتتبدد قوى المسلمين ويستمروا كما كانوا - ضعافا مقهورين يستذلهم اليهود والفرس والروم.

وحيث إن اليهود قد رفضوا منذ البداية التصديق بنبوة الرسول وناصبوا الإسلام العداء، وخالفوا عقد الموادعة، فإن طردهم من الجزيرة العربية أصبح أمرا لا مَفَرَّ منه؛ منعا لشرورهم وتلافياً لخطرهم.

ولكن كيف يتم ذلك؟ هذا هو ماكان الرسول صلى الله عليه

وسلم يفكر فيه ، مع أخذه بعين الاعتبار قوتهم التى كان يقال عنها الكثير ، ولكنها ليست معروفة على وجه التحديد ، وهو ماكانوا يحرصون عليه أشد الحرص ، كما هو دأبهم الآن ؛ لما لذلك من دور فى إخافة أعدائهم وجَعْلِهم يترددون فى الهجوم عليهم . وكذلك خطتهم فى إقامة المستوطنات ، التى روعى فيها أن يكون بعضها رديفا لبعض بحيث يكون من السهل تقديم العون والدعم والمساعدة من المستوطنات المتأخرة إلى المستوطنات المتقدمة ، واستخدام الأولى كخط رجعة فى حالة ما إذا نزلت الهزيمة بالثانية ، فيلجأ إليها المنسحبون بأموالهم وأسلحتهم وعتادهم ، وهو مافعله بنو قينقاع وبنو النضير ، فقد قصد الأولون أذرعات ، فى حين قصد الأخيرون خيبر ، التى تضاعفت قوتها وزاد خطرها .

ولذلك فإن بعض المستشرقين يعتبرون فتح خيبر أول فتح فِعْلِيٍّ يقوم به المسلمون ، وهذا صحيح من جميع الوجوه ، فلقد كانت خيبر مستوطنة يهودية خالصة لايقيم بها غير اليهود ، تتميز بالتسليح الجيد والحصون القوية المنيعة ، وبوجود المقاتلين الأشداء المشهورين بين العرب واليهود على السواء .

وإذا كان اليهود قد فقدوا مستوطناتهم فى المدينة ، فإنهم عللوا ذلك بوجودها فى متناول أيدى المسلمين ، وذلك بخلاف المستوطنات الأخرى ، وعلى رأسها خيبر ، التى كانت بعيدة عنهم بمسافة طويلة ، وهذا ماجعل اليهود يمنون أنفسهم بالنصر على المسلمين إذا مافكروا فى الهجوم عليها ؛ نظرا لبعد الشقة ومايترتب

عليها من معاناة ، فضلا عما يتوفر لتلك المستوطنة من مزايا لاشك أنها ستتيح لها التفوق على المسلمين .

وكانت خطة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن قضى على المستوطنات الثلاث فى المدينة ، أن يقضى على أكبر وأخطر المستوطنات اليهودية التى تنتشر بين المدينة والحدود الشمالية للحجاز ، وذلك لأسباب عديدة ، منها : أنه لايصح أن يتجاوز خيبر ويوجه هجومه إلى مايليها شمالا ؛ لأنه بذلك سوف يجعل ظهره مكشوفا ليهود خيبر ويعرض جيشه لهجومهم ، فيقع بين فكى الكماشة وتلحق به الهزيمة . هذا فضلا عما سيؤدى إليه ذلك من انقطاع اتصاله بقاعدته فى المدينة ، مع احتمال أن يؤلب اليهود القبائل العربية عليه ، فتهاجم المدينة وليس فيها إلا عدد ضئيل من المسلمين لايمكنهم الدفاع عنها .

وهكذا كان لسقوط خيبر دوى هائل صك آذان اليهود على طول المنطقة الممتدة إلى الحدود الشمالية مع الإمبراطورية البيزنطية ، واعتراهم خوف شديد ؛ ولذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكد ينتهى من خيبر حتى توجه بجيشه إلى وادى القرى القريب من خيبر ، فضرب عليه الحصار بضع ليالٍ ، أخذ اليهود أثناءها يقذفون المسلمين بسهامهم من وراء حصونهم ، فأصابوا خادما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتلوه ، ولكنهم مالبثوا أن أدركوا عقم مقاومتهم ، وأنهم لن يفلحوا حيث فشل يهود خيبر فعرضوا الصلح على الرسول صلى الله عليه وسلم ، على أن يؤدوا الجزية ويخضعوا

للمسلمين ويعملوا لهم كمزارعين فى الأرض مقابل نصف المحصول .

واستمر تأثير الهزيمة التى لحقت بخيبر ، فى اليهود القريبين منها ، فبادر يهود تيماء الذين كانوا يُكِنُّون عِدَاءً شديدا للرسول إلى إظهار استعدادهم للخضوع للمسلمين مختارين ، وشجعهم على ذلك مالقيه إخوانهم فى وادى القرى من حسن المعاملة ، وظلوا يعملون فى أرضهم نظير أداء الجزية .

كذلك فعل يهود فَدَك الذين أصابهم رعب شديد لمَّا سمعوا بهزيمة وسقوط خيبر ، فبعثوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يصالحونه على النصف من فدك فقبل ذلك منهم وتم إبرام الصلح .

وهكذا أدى سقوط المستوطنة اليهودية القوية فى خيبر إلى سقوط ثلاث مستوطنات يهودية أخرى هى : وادى القرى ، وتيماء وفدك ، ولكن ابن سعد فى طبقاته ذكر مستوطنة يهودية أخرى هى « الجرباء » قال إنها استسلمت هى الأخرى .

ولكن بقيت ست مستوطنات أخرى فى أقصى الشمال يجب القضاء عليها ، حتى يتخلص الحجاز كله من تسلط اليهود واستغلالهم ، ويأمن غدرهم وخيانتهم . صحيح أن المدينة كانت قد تطهرت منهم ، ولكن منطقة الحدود الشمالية المتاخمة لدولة الروم كانت ماتزال تحت سيطرتهم هى والطرق التجارية الهامة التى تصل الجزيرة العربية بالشام وفلسطين ومصر .

غزوة تبوك

فى السنة التاسعة من الهجرة بدأ الإعداد لغزو تبوك وماحولها .. وفى هذا الصدد يهمنا أن نناقش ماورد بكتب التاريخ والسيرة . فقد ذكر ابن هشام أن الرسول قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها ، وأخبر أنه يريد غير الوَجْهِ الذى يقصد له ، إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بَيَّنَها للناس لِبُعْدِ الشُّقَّة وشدة الزمان وكثرة العدو الذى يقصد له ؛ ليتأهب الناس لذلك أهبته ، فأمر الناس بالجهاز ، وأخبرهم أنه يريد الروم .

ونظرا لأن هذا الذى قاله ابن هشام ليس إلا استنتاجا لايقوم على صحته دليل ، لا من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ولا من الواقع ، حيث إن الرسول صلى الله عليه وسلم سبق أن صرح بغزوه لبنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة دون أن يكنى ، أى يخفى وجهته الحقيقية لأجل أن يباغت أعداءه . ولكن فى الأحوال التى ذكرناها كان الأعداء قريبين والهجوم حال لايحتاج إلى وقت طويل ولا سير لمسافات بعيدة ، وهو ماتختلف فيه غزوة تبوك ؛ لذلك نرجح أن يكون العكس هو الصحيح ، أى أنه لما صرح الرسول بأنه يقصد الروم فإنه كان يقصد غيرها ، وهى تبوك وماهو قريب منها من المستوطنات اليهودية ، وهناك أكثر من دليل يؤيد استنتاجنا هذا منها :

أولا – أنه لم تكن هناك أى فائدة من غزو الرسول صلى الله عليه وسلم للروم ، الذين كان لديهم جيوش جرارة وأعوان كثيرون من

حلفائهم العرب ، والجميع على مستوى عال من الخبرة العسكرية والحربية ، فضلا عن وجودهم قريبا من قواعدهم فى الشام ، بعكس المسلمين الذين كانوا بعيدين جدا عن قاعدتهم فى المدينة .. أما القول بأن الرسول إنما أراد أن ينتقم لشهداء مؤتة الذين قتلوا فى معركة غير متكافئة مع الروم ، حيث كان عدد المسلمين ثلاثة آلاف مقابل مائة ألف أو أكثر من جنود الروم وحلفائهم العرب - فإن الرسول نفسه لم يصرح بشىء يفهم منه أن ذلك هو السبب فى غزوه للروم ، وإنما كان ماصرح به أنه سيغزو الروم .

ثانيا - أن الصراحة الشديدة التى تكلم بها الرسول عن غزوة الروم ، هى ذاتها التى توحى - وبسهولة شديدة - بأنه إنما كان يقصد وجهة أخرى غير الروم ؛ لأنه إذا كان قد تعمد أن يخفى وجهته فيما قام به من غزوات ضد قريش أو غيرها ، فمن باب أولى إذا قصد أن يغزو الروم ؛ لأنهم أقوى وأكبر ، وجيوشهم ضخمة وأسلحتهم كثيرة ومتنوعة ، وخبرتهم عظيمة ، فأن يباغتهم بالهجوم دون أن يكون لديهم علم هو الأصح ، ولكنه كان يريد أن يباغت اليهود ، وليس الروم ، ولذلك صرح بالروم ولم يصرح باليهود .

ثالثا : أن الظروف التى كانت الغزوة ستتم فيها كانت تستدعى فعلا إخفاء وجهتها ؛ ذلك لأن تبوك كانت بعيدة عن المدينة بمسافة تسمح لسكانها ولسكان المستوطنات الأخرى بالاستعداد لملاقاة جيش المسلمين ، إذا مابلغهم مقدمهم لحربهم ، وقد كان بين المسلمين من يتعاطفون مع اليهود ، مثل عبدالله بن أُبَىٍّ بن سلول ،

الذى بلغت به الخيانة أن انسحب وعاد إلى المدينة بأتباعه ، تاركا الرسول فى طريقه إلى تبوك بل وكان هناك عملاء يهود ، وإن كانوا قد تظاهروا بالإسلام : منهم سويلم الذى كان يجمع الناس ويثبطهم عن الاشتراك فى الغزو ، وزيد بن اللصيت القينقاعى ، وآخرون ، فلو أن الرسول صلى الله عليه وسلم صرح بأنه يقصد تبوك لبعثوا بالخبر إليها ، فاستعدت لملاقاته بجيش كبير يتكون من رجالها ورجال المستوطنات الأخرى القريبة ، وربما استعانت بآخرين من القبائل العربية المعارضة للرسول صلى الله عليه وسلم .

ولكن ماذا إذا نمى الخبر إلى الروم بأن الرسول إنما يقصدهم فعلا لا اليهود ، وأخذوا أهبتهم لملاقاته فى جيش ضخم يقضى عليه وعلى من معه ؟ بطبيعة الحال فإن مثل هذا الاحتمال لايمكن أن يكون قد غاب عن فطنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل إنه كان حاضرا - وبوضوح - وإلا ماصرح بأنه يقصد غزو الروم ، ولكن بما أنه لم يكن ينوى غزوهم فإنه استبعد أن يشتبكوا معه فى حرب داخل حدود الجزيرة العربية حيث الصحراء الشاسعة التى لاخبرة لهم بالحرب فيها ، ثم إن تبوك تقع داخل الجزيرة ، ولا شأن لهم بها بعكس معان ومؤتة اللتين حاربوا فيهما العرب فى العام السابق ، فهما تقعان داخل حدود الإمبراطورية ، وبالتالى لم يكن يجوز ترك العرب يصولون ويجولون فيها ؛ لما فى ذلك من مساس بهيبة الإمبراطور ودولته .

أما أن يقال إن الرسول أراد غزو الروم لما علم بتجمعهم فى

جيوش جرارة على حدود الحجاز ، ثم لما بلغ تبوك توقف بضعة أيام ، ثم عاد أدراجه ، فإنه كلام يعوزه الدليل . فما كان الرسول صلى الله عليه وسلم بالذى يتصرف على هذا الوجه ، أى أن ينتزع الناس من بيوتهم فى الحر الشديد وفى ظروف بالغة القسوة ، حيث لا ماء تقريبا ، ولا مكان يرتاح الناس فيه ، وقد كان معظم الجيش من المشاة وقلة من الفرسان ؛ لكى يقول للروم هأنذا وهو يقف بعيدا عنهم بأميال داخل حدوده ، كلا طبعا ، وإنما كان الغرض هو غزو تبوك ولاشيء غير ذلك ، وما كانت تبوك والمستوطنات الست الأخرى بالتى يستهان بها ، خاصة أنها أصبحت آخر مكان فى أيدى اليهود ووجودهم فيه مسألة حياة أو موت ؛ إذ ليس بعد ذلك إلا العودة إلى الروم الذين كانوا قد فروا منهم ، وكانوا يكرهونهم بشدة قد لاتزيد عن كراهيتهم للمسلمين ، ولكن هؤلاء بالنسبة لهم أرحم بكثير وأشد تسامحا ، وهو ما أخبرهم به إخوانهم الذين لحقوا بهم من المدينة وخيبر وغيرها .

وهكذا ، فإن يهود تبوك والمستوطنات الأخرى اطمأنوا لما بلغهم أن المسلمين يقصدون الروم ، واستبعدوا أن يهاجموهم حتى لاينال ذلك من قوتهم ، ويستنفد بعض طاقاتهم ، فيلتقوا بالروم وهم فى حالة من الإرهاق والضعف ، بل وربما تصوروا أن المسلمين قد يهادنونهم تلافياً لشرهم أو تجنُّباً لخطرهم ، وقد يستعينون بهم للحصول على الإمدادات اللازمة ، خاصة أن خطوط إمداداتهم مع قاعدتهم فى المدينة طويلة بدرجة لا تسعفهم فى الحصول على مايحتاجون إليه فى الوقت المناسب .

ولكن كل توقعاتهم فشلت ، واستولى المسلمون على تبوك ، واضطروهم إلى الاستسلام بعد أن وجدوا أنه لا فائدة ، بل لاسبيل إلى المقاومة ، فأذعنوا للرسول صلى الله عليه وسلم ، ووافقوا على أداء الجزية ، وأن تعود الأرض إلى أصحابها على أن يحصلوا هم على نصف غلتها ، وأقام الرسول صلى الله عليه وسلم فى تبوك عشرة أيام ، فوفدت عليه وفود المستوطنات الأخرى التى أيقنت بالنهاية المحتومة ، وأن لاسبيل إلى الوقوف فى وجه أصحاب الأرض الذين لم يعودوا كما كانوا عندما غزت يهود الحجاز . وهكذا خضعت أذرح ، وقمنا ، وبنى جنبه ، وبنى عريض ، وبنى غاريا ، بل وأيلة التى كانت دويلة نصرانية يقيم بها بعض اليهود ، فقد جاء ملكها المدعو يوحنا بن رؤبة يعلن خضوعه للرسول ويلتزم بدفع الجزية .

وبغزوة تبوك سقط سلطان اليهود نهائيا ، وأصبحت مستوطناتهم ملكا للمسلمين ، وجرى إنشاء المساجد فى طول وعرض المنطقة الممتدة بين تبوك والمدينة يتردد من فوقها صوت المؤذنين خمس مرات كل يوم بنداء الله أكبر ، وبشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ولكن هل كف اليهود عن عدائهم للمسلمين ، وكبحوا رغبتهم فى الكيد لهم ، بعد كل ماأصابهم ؟ كلا بطبيعة الحال ؛ فإنهم لو فعلوا هذا لما كانوا يهودا ، ففى خيبر قتلوا غيلة رجلا من المسلمين يُدْعَى عبدَ الله بن سهل ، ولما سألهم الرسول عن ذلك بناء على اتهام أولياء القتيل لهم أنكروا ، بل وأقسموا أنهم ماقتلوه ، وعندئذ أدى الرسول صلى الله عليه وسلم الدية من ماله ، مَنعاً لثأر المسلمين منهم .

ومرة ثانية حاولوا قتل عبدالله بن عمر لما ذهب إلى خيبر يتفقد ماله . ولكنه لم يُقتل وأصيب فى يده فقط . ويبدو أنهم قد نظموا مايشبه حركة إرهابية سرية تهدف إلى قتل المسلمين ، أو تخويفهم لكى يتركوا لهم خيبر .

لذلك ، فإنه لما ثار الجدل حول تصرفاتهم التى تخالف التزاماتهم بموجب العهد الذى سبق أن منحه لهم الرسول ، نمى إلى علم الخليفة عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى مرضه الذى قبضه الله فيه : لايجتمعن بجزيرة العرب دينان ، فتحرى عمر ذلك وفحصه حتى تَثَبَّتَ منه ، فأرسل إلى يهود ، فقال : إن الله عز وجل قد أذن فى إجلائكم ، قد بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لايجتمعن بجزيرة العرب دينان ، فمن كان عنده عهد من رسول الله من اليهود فليأتنى به ، أنفذه له ، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله من اليهود فليتجهز للجلاء .

وهكذا أجلاهم عن الجزيرة العربية بعد أن تأكد بصورة نهائية أنهم لن يكفوا عن الكيد للمسلمين وإيذائهم ، فآلت مستوطناتهم إلى أصحابها الحقيقيين ، كما ستئول مستوطناتهم فى فلسطين إلى أصحابها بإذن الله .

الفصـــل الثالث

غــزوة خيبــر وزواج الرســول صلى الله عليه وسـلـم مـــن صفيــة بنـــت حـيـي

غـزْوة خيبـر وزواج الرسـول صلى الله عليـه وسلـم من صفيـة بنْـت حـيى

من بين الغزوات الكثيرة التى غزاها الرسول صلى الله عليه وسلم للمستوطنات اليهودية ، حظيت غزوتا بنى قريظة وخيبر باهتمام شديد من المستشرقين والمؤرخين الغربيين ، فاتخذوا مما حدث فيهما ذريعة للتهجم على الإسلام ، وتوجيه النقد الشديد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

بالنسبة لغزوة بنى قريظة ، تجاهلوا كل الأسباب التى أعدم من أجلها المقاتلون اليهود ، ووجهوا كل اهتمامهم إلى العدد الذى قتل ، وتباروْا فيما بينهم فى إظهار الحزن والأسى على أولئك المجرمين الذين ماكانوا يترددون ولو للحظة واحدة فى إعمال الذبح والتقتيل فى المسلمين صغارا وكبارا ، كما فعل الصهاينة فى القرى الفلسطينية فيما بعد .

أما بالنسبة لغزوة خيبر ، فإنهم استغلوا ماحدث بعدها من زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من السيدة صفية بنت حُيَىّ بن أخطب ؛ لاتهامه بأنه قتل زوجها لكى يتزوجها ، بل وقال بعضهم : إنه خالف مايقضى به الدين الإسلامى من ضرورة استبراء المرأة بأن تزوجها عشية المعركة التى سقط فيها زوجها قتيلا .

والحقيقة أن ماقالوه بالنسبة لزواج السيدة صفية لم يكن من بنات أفكارهم ، وإنما استقوه مما ورد بكتب السيرة والتفسير والتاريخ التى تناولت ماحدث فى خيبر بطريقة يفهم منها أن هذا هو ماحدث بالفعل . فقد أورد معظم المفسرين والمؤرخين روايات بشأن زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من صفية تتضمن هذا المعنى ، فقد زعموا أنه تزوجها عقب قتله لزوجها ، دون أن يبينوا المدة التى انقضت بين قتل الزوج وزواج الرسول من صفية ، بل إن منهم من أورد الرواية بطريقة يفهم منها أن هناك علاقة بين الزواج وقتل الزوج ، ومنهم من ذكر روايات أكثر فجاجة تتحدث عن الظروف التى اكتنفت زواج الرسول بصفية ، ظهر فيها الرسول كما لو كان رجلا من هذا النوع الذى يتحكم فيه الهوى ، فيملى عليه تصرفاته ، أو كما لو كان زعيما لعصابة ينافس أعوانه على امرأة جميلة ، أو فى أحسن الظروف كأنه ملك يؤثر نفسه بابنة ملك وقعت بين السبى .
والغريب فى الأمر أن كثيرا من هذه الروايات تنسب إلى مصدر واحد على الرغم من اختلاف الرواة المتتابعين ، فقد يكون المصدر الأصلى أنس بن مالك أو ابن إسحاق أو غيرهما ، ولكن الروايات التى تنسب إليهم تتعدد مع اختلاف الرواة ، فترى أن كل راوية يركز روايته على أمر دون غيره ، وهو ماسوف نوضحه عندما نتناول الروايات الكثيرة التى قيلت فى زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بصفية بنت حيى .

والواقع أن مثل هذه الأمور ، أى زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بصفية أو بزينب بنت جحش أو بعائشة ليس تاريخا بقدر ما

هو سيرة ، حيث يقتصر دور المشتغلين بها على النقل والرواية دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة تمحيص ما يروونه والتحقق من صدقه ، أو على الأقل مدى اتفاقه مع ما عرف من أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعدم مخالفة ما ورد به لمبادىء الإسلام وأحكامه ، بل للاتساق الشديد بين تصرفاته وأفعاله ، بحيث لانجده يتصرف بطريقة مغايرة لما سبق أن تصرف به بالنسبة لحالة مماثلة للحالة التى تصرف حيالها .

وعلى الرغم من أن أول من اشتغلوا بهذا الفن كانوا محدثين ناقلين ، فإن الذين جاءوا من بعدهم لم يهتموا بتمحيص الروايات ونقد الاخبار ، وإنما اكتفوا بالجمع والتبويب ، ولم يوجهوا اهتماما يذكر إلى التحليل والنقد : ففى البداية والنهاية لابن كثير ترد الروايات الكثيرة والمختلفة بشأن أمر واحد دون أن يحاول إجراء مقارنة بينها وكشف ماقد يوجد بينها من تعارض . وربما يرجع ذلك إلى أن نظرة هؤلاء إلى السيرة كانت تتسم بالتقديس ، مما جعلهم يتورعون عن التعرض لما فيها من مبالغات وتناقضات وأخبار غير حقيقية من شأنها أن تسيء إلى الإسلام أشد الإساءة . وهو ما استغله المؤرخون الغربيون فعلا فيما وضعوه من كتب اعتمدوا فيها للإساءة إلى الإسلام على الروايات والأخبار غير الصحيحة التى اشتملت عليها كتب السيرة ، بل وكتب التاريخ التى نقلت عنها : من ذلك ماذكره المؤرخ الإنجليزى (هـ . ج ويلز) فى كتابه معالم تاريخ الإنسانية عن زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بصفية بنت حيى بن أخطب فهو يقول : « وكانت صفية – إحدى زوجاته – يهودية تزوجها ليلة

المعركة التى قبض فيها على زوجها وقتل . إذ استعرض السبايا فى آخر النهار فراقت فى نظره وحملت إلى خيمته . وسوف نرى أن هذا الذى قاله (ويلز) ليس إلا ترديدا لما ذكره المؤرخون والمفسرون المسلمون فى كتبهم . فـ (ويلز) لم يفتر على الإسلام ولم يتعمد الكذب فيما قاله ؛ لأنه ــ والحق يقال ــ أنصف الإسلام فيما كتبه عنه مما ألمَّ به إلماما سليما ، وحاول أن يعطيه حقه وهو يؤرخ له فى كتابه ، وإن لم تسعفه المادة التى جمعها ، وكثير منها استقاه من مصادر غير إسلامية ، وبالذات من كتب المستشرقين الذين افتروا على الإسلام ، فنقل افتراءاتهم التى منها على سبيل المثال أن الإسلام انتشر بالسيف ، أما هذه الفرية ، أى مافعله الرسول عند فتحه لخيبر من قتله لزوج صفية ، ثم زواجه بها – فإننا نجد ماهو أشد منها إسفافا وفجاجة فيما رواه الرواة عن هذا الموضوع .

الروايات التى قيلت فى زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بصفية :

هناك أكثر من عشر روايات قيلت فى هذا الموضوع سنعرضها فيما يلى ، ثم نقارن بين ماورد فيها ونمحصها وننقدها توصلا إلى الحقيقة التى تتفق مع أحكام الإسلام وأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم . وسنبدأ بالرواية التى وردت فى البخارى باعتباره أكثر المصادر من حيث الثقة فيه . فقد ذكر البخارى بخصوص فتح خيبر مايلى :

حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس

الروايـة الأولـى

ابن مالك قال : صلى النبى الصبح قريباً من خيبر بغلس ثم قال : الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين . فخرجوا يسعون فى السكك ، فقتل النبى المقاتلة وسبى الذرية ، وكان فى السبى صفية ، فصارت إلى دحية الكلبى ، ثم صارت إلى النبى ، فجعل عتقها صداقها . ورواه مسلم أيضا من حديث حماد وله طرق عن أنس .

وهكذا نلاحظ أن مارواه أنس هنا يشتمل على ذكر الوقت الذى شرع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فى الهجوم على خيبر ، وهو الغلس (بعد صلاة الفجر) كما ذكر المعركة التى دارت ، ومن وصفه الشديد الاقتضاب يخيل للمرء أن الأمر لم يستغرق إلا ساعات قليلة ، وأن هزيمة اليهود تمت بسهولة شديدة . فالمسلمون خرجوا يسعون فى السكك يقتلون اليهود هكذا ببساطة ، وكأنهم كانوا عزلا من السلاح ، أو على أكثر تقدير أن بعضهم قاتل دفاعا عن نفسه ، وانتهى الأمر بالقضاء عليهم وسبى الذرية التى كانت فيها صفية ، فأخذها دحية الكلبى ، ثم أخذها النبى منه فجعل عتقها صداقها وتزوجها ، وانتهى الأمر فى يوم أو بعض يوم . ولسنا نلوم أنسا الذى روى الأمر على هذا الوجه ، فهو لم يكن يقصد إلا أن يذكر ماقاله الرسول عند فتح خيبر . كذلك لانلوم « البخارى » ؛ فهو ليس مؤرخا وإنما هو جامع أحاديث يرويها كما سمعها ، وكذلك مسلم وغيرهما من أصحاب الصحاح . وإن كان الأصح أن يقال إنه عندما هَمَّ الرسول صلى الله عليه وسلم بفتح خيبر صلى الصبح ثم قال كذا ،

دون الحديث عن المعركة التى دارت رحاها بين المسلمين واليهود .
ولكن يبدو أن أنساً رضى الله عنه أراد بروايته الأمر على هذا الوجه أن يبين ماكان لقول الرسول صلى الله عليه وسلم من أثر فى سير المعركة ومطابقة ماحدث لما قاله عن سوء صباح المنذرين ، فكأنما المعركة نشبت فى الصباح وحسمت بسرعة حسبما تنبأ الرسول .
وهذا ليس بشرط فقد كان يكفى أن تنذر النذر الأولى لسير المعركة بهزيمة اليهود فى المدى الطويل .

الرواية الثانية :

وإسناد هذه الرواية ينتهى إلى أنس بن مالك أيضا ، وقد رواها عنه أحمد بن عيسى حدثنا ابن وهب أخبرنى يعقوب بن عبد الرحمن الزهرى عن عمرو مولى المطلب عن أنس قال : قدمنا خيبر ، فلما فتح الرسول الحصن ذكر له جمال صفية بنت حيى بن أخطب وقد قتل زوجها وكانت عروسا ، فاصطفاها النبى لنفسه ، فخرج بها حتى بلغ بها سد الصهباء حَلّتْ . فبنى بها رسول الله ، ثم صنع حيسا ثم نطع صغير ثم قال لى : آذن من حولك فكانت تلك وليمته على صفية ثم خرجنا إلى المدينة فرأيت النبى يحوى لها وراءه بعباءة ، ثم يجلس عند بعيره ، فيضع ركبته وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب . تفرد به دون مسلم .

وأول مانلاحظه على هذه الرواية هو اختلاف الرواة ، فهم غير الذين رووا الرواية الأولى . كذلك نلاحظ اختلاف المضمون ، فهنا

يرد ذكر فتح الحصن ، بعكس الرواية السابقة التى تتحدث عن سعى المقاتلين فى السكك . كما يختفى هنا دحية الكلبى الذى كان أول من أخذ صفية من السبى ، ويرد ذكر لكلام قيل للرسول عن جمال صفية بنت حيى ، وكان زوجها قد قتل وكانت عروسا فاصطفاها لنفسه ، فخرج بها حتى بلغ بها سد الصهباء حيث كانت قد حَلَّتْ أى أصبحت حلالا يجوز له أن يتزوجها ، فدخل بها ثم أقام وليمته لمن معه ، ويزعم الرواة أن أَنَساً قال : إنه رأى الرسول صلى الله عليه وسلم يجلس عند بعيره فيضع ركبته وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب البعير .

وهذه الرواية غريبة وعجيبة من حيث إنها تقتصر على ذكر أمور ليست ذات أهمية إلا من وجهة نظر بعض من رووها ، ثم إنها تهمل كثيرا من الأمور الهامة أو تختزلها اختزالا معيبا ، فهى تذكر أن النبى فتح الحصن ، فكأنه لم يكن بخيبر سوى حصن واحد فى حين أن الروايات الأخرى تذكر حصونا كثيرة ، واحد منها هو الذى كانت فيه صفية ، وهو لم يكن آخر مافتح من الحصون حتى يقوم الرسول صلى الله عليه وسلم بحمل صفية والخروج بها إلى سد الصهباء . ومما يزيد الأمر سوءاً أن ذكر هذا الخروج سبقه قول الرواة إنه قد ذكر للرسول جمال صفية مما يجعل المرء يتصور أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يهتم بجمال النساء ، فلا يكاد يسمع عن امرأة جميلة حتى يبادر فيستولى عليها أو يصطفيها لنفسه ، ويترك القتال ليتزوج بها ، تماما كما يحدث فى الأفلام السينمائية . وهذا إسفاف من الرواة يضاعف

منه قولهم إن ذكر جمال صفية للرسول كان بعد مقتل زوجها الذى كان قد تزوجها حديثا ، أى أنها كانت عروسا . وهو كلام لايمكن أن يتصور المرءُ حدوثَه من الرسول الكريم الذى لم يكن ليسمح بالحديث عن امرأة وذكر جمالها بهذه الصورة التى توحى بتفاهة تفكير أصحابه الذين كانوا مشغولين بالحرب والقتال والاستشهاد فى سبيل الله ، فكيف بهم يتركون الحديث عنها إلى الحديث عن جمال النساء . ومن هم هؤلاء الرجال الذين كانوا يقبلون على مثل هذه الأحاديث أو حتى يجرءون على الخوض فى هذه الأمور أو يفاتحون فيها النبى ؟ أهُمْ أبو بكر وعمر وطلحة وعلىٌّ والزبير أم من ؟ إنه كلام فارغ لايصدر إلا عن عقول فارغة مثل عقول الرواة المتأخرين الذين تأثروا فى نقلهم للروايات بما كان قد ساد المجتمع الإسلامى من أخلاقيات تتساهل إزاء الحديث عن النساء وجمالهن وغير ذلك ، وليس أصحاب الرسول الذين كانوا يعلمون أن النظر إلى النساء خطيئة وأن هناك مايسمى بِزِنَى النظر . أما أن يجلس الرسول على الأرض لتضع صفية قدمها على ركبته لكى تركب البعير فهذا إسفاف آخر لايقل عما سبقه ، فما كان الرسول ليفعل ذلك ولو لمساعدة امرأة على ركوب البعير ، فهناك طرق أخرى كثيرة يمكنه أن يلجأ إليها لمساعدة صفية على ركوب البعير ، صحيح أنه كان يحمل السيدة عائشة على كاهله لكى يُمَكِّنَها من مشاهدة الأحباش أثناء تقديمهم لِعُروضهم فى المدينة ، ولكن أين صفية من عائشة بنة أبى بكر رضى الله عنه .

الرواية الثالثة :

وإسنادها إلى أنس بن مالك أيضا . يقول البخارى : « حدثنا

سعيد ابن أبى مريم حدثنا محمد بن جعفر بن أبى كثير أخبرنى حميد أنه سمع أنَساً يقول : أقام رسول الله بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبنى عليه بصفية فدعوت المسلمين إلى وليمته وماكان فيها من خبز ولحم وما كان فيها إلا أن أمر بلالا بالأنطاع فبسطت ، فأُلِقىَ عليها التمرُ والأقط والسمن فقال المسلمون إحدى أمهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه ؟ فقالوا إن حَجَبَها فهى إحدى أمهات المؤمنين وإن لم يَحْجُبْها فهى مما ملكت يمينه . فلما ارتحل وطأ لها خلفه ومد الحجاب ». انفرد به البخارى .

وهنا أيضا يختلف الرواة ، فليس بينهم أحد ممن ورد اسمه فى الروايتين السابقتين ، مما يوحى بإن أَنَساً رضى الله عنه لم يكن له من هَمٍّ إلا أن يروى للناس ما حدث من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فمرة يتكلم عن جمال صفية ، وأخرى يتكلم عن الوقت الذى قضاه الرسول فى الدخول بها ، وقد زعموا أنه قالٍ إن الرسول أقام ثلاث ليال بين خيبر والمدينة لهذا الغرض ، وكأنه ليس وراءه دعوة يضطلع بمسئولياتها الجسيمة ومِنْ حوله أعداء يتربصون به الدوائر وَوَحْىٌ ينزل عليه بآيات القرآن الكريم ، ومقاتلون تركوا أسرهم وبيوتهم أياما طويلة ، وتحملوا مشقة القتال ، ويرغبون فى العودة إلى وطنهم ؛ ليطمئنوا على ذويهم ويطمئنوهم عليهم .

وفيما ذكره ابن هشام نقلا عن ابن إسحاق مايدحض هذه الرواية فهو يقول : فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر انصرف إلى وادى القرى ، فحاصر أهله ليالى ، ثم انصرف راجعا إلى المدينة .

وكانت الأخطار تتهددهم فى طريقهم إلى وادى القرى ، فلم تكن الرحلة رحلة ترويح أو زواج يستمر ثلاث ليال : ففى ابن هشام أيضا عن أبى هريرة ، قال : فلما انصرفنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خيبر إلى وادى القرى نزلنا بها أصيلا مع مغرب الشمس ، ومع رسول الله غلام له ، أهداه له رفاعة بن زيد الجذامى ، ثم الضبيبى ، قال : فوالله إنه ليضع رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه سهم غرب فأصابه فقتله ، فقلنا : هنيئا له الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا ، والذى نفس محمد بيده ، إن شملته الآن لتحترق عليه فى النار ، كان غلها من فَيْء المسلمين يوم خيبر . قال : فسمعها رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاه فقال : يارسول الله ، أصبت شراكين لنعلين لى ، قال : فقال يُقَدُّ لك مثلُهما من النار .

كذلك فإن من يقرأ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قضى ثلاث ليال يبنى بصفية يرد على خاطره على الفور خاطر مماثل لما يرد الآن متعلقا بما نسميه « شهر العسل » الذى يقضيه العروسان معا فى إجازة طويلة يستمتعان ويلهوان ويمرحان ولايباليان . كل مافى الأمر أن الرسول صلى الله عليه وسلم اختصرها إلى ثلاث ليالٍ فقط قضاها مع عروسه الجميلة التى جعله جمالها ينتزعها من دحية الكلبى الذى كانت له أول الأمر . وهذا خيال مريض أو على الأقل جهل فاضح بما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم . أو نسيان لأحواله وسلوكه . فقد كان يقضى الليل قائما ، ويستيقظ فجرا ليصلى ، ثم يعمل فيما كلفه الله سبحانه وتعالى إياه . ومما يدل على أنه لم يقض

ليلة من هذه الليالى المزعومة مختليا بعروسه يمرح ويلعب ويستمتع بها- ما ذكره ابن هشام، قال ابن إسحاق، وحدثنى الزهرى عن سعيد بن المسيب ، قال : لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر ، فكان ببعض الطريق ، قال من آخر الليل : من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام ؟ قال بلال : أنا يارسول الله أحفظه عليك ، فنزل رسول الله ، ونزل الناس فناموا ، وقام بلال يصلى ، فصلى ماشاء الله عز وجل أن يصلى . ثم استند إلى بعيره ، واستقبل الفجر يرمقه، فغلبته عينه، فنام، فلم يوقظهم إلا مس الشمس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول أصحابه هب ، فقال : ماذا صنعت بنا يابلال ؟ قال يارسول الله أخذ بنفسي الذى أخذ بنفسك ، قال : صدقت ، ثم اقتاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيره غير كثير ، ثم أناخ فتوضأ ، وتوضأ الناس ، ثم أمر بلالا فأقام الصلاة ، فصلى رسول الله بالناس ، فلما سلم أقبل على الناس فقال : « إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذ ذكرتموها فإن الله تبارك وتعالى يقول «وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ» [1] وهكذا يتبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقض الليل يباشر صفية ، بل قضاه يصلى ثم نام ، والدليل على هذا أنه لما استيقظ توضأ ولم يغتسل ، فلو أنه كان قد باشرها لاغتسل من الجنابة؛ لأن الاغتسال شرط للطهارة، فقد روى عمرو بن العاص أنه لما أصابته الجنابة فى غزوة ذات السلاسل ، وكانت ليلة باردة فتيمم ، وصلى بأصحابه ، بالتيمم ، ولما رجعوا

(١) آخر الآية ١٤ من سورة طه

ذكروا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ياعمرو أصليت بأصحابك ، وأنت جنب ؟ فقال : يارسول الله إنى سمعت الله يقول ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾[2] فضحك ، ولم يقل شيئا . وقد كانت غزوة ذات السلاسل فى الشتاء ، أما غزوة خيبر فكانت فى الصيف والماء متاح مما يستبعد معه أن يكون الرسول قد تيمم ، بل الثابت أنه قد توضأ . وهذا دليل قاطع على أنه لم يباشر صفية فى هذه الليلة ، مما ينفى أن تكون الليالى الثلاث التى قضاها بعد الخروج من خيبر ليالى بناء .

وكل مايمكن الخروج به من الرواية الثالثة أن المسلمين كانوا يتخذون من حجب الرسول الله صلى الله عليه وسلم للمرأة علامة يفرقون بها بين من كانت زوجته ومن كانت مِلْكَ يمينه . وحتى هذه لا أهمية لها ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن لديه مَن هى ملك يمينه غير ريحانة بنتْ عمرو بن جنافة إحدى نساء بني عمرو بن قريظة ، ولم يتكرر منه ذلك حتى يعد علامة يستدلون بها على مقصده . وحتى إذا تجاوزنا عن ذلك واعتبرنا أن ماقيل فى هذا الصدد كان صحيحا فإنه يعد كذلك بالنسبة للعامة دون الخاصة أى لمن لم يكونوا يطلعون على أحوال الرسول وتصرفاته عن قرب ؛ لأن الحجاب وحده لا يكفى للقول بأن امرأة ما قد أصبحت زوجة للرسول ، وإنما يجب أن يتم العقد . والملاحظ أن الذين رووا هذه الرواية عن أنس قالوا إن الرسول صلى الله عليه وسلم أقام بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبنى عليه بصفية ، أى أنه كان قد دخل بها وأن حَجْبَه لها كان بعد

(٢) جزء من الآية ٢٩ من سورة النساء

الزواج وليس قبله ، ولكنهم لم يعلموا به لأنهم لم يكونوا حاضرين وقت العقد ، ومن هنا كان تساؤلهم .

الرواية الرابعة :

ذكر الطبرى هذه الرواية فى تاريخه حيث قال : حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن ابن إسحاق قال : ولما فتح الرسول صلى الله عليه وسلم القموص حصن ابن أبى الحقيق أتى رسول الله بصفية بنت حُيَيٍّ بن أخطب ، وبأخرى معها ، فمر بهما بلال – وهو الذى جاء بهما – على قتلى من قتلى يهود ، فلما رأتهم التى مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها ، فلما رآها رسول الله قال أغربوا عنى هذه الشيطانة ، وأمر بصفية فحيزت خلفه ، وألقى عليها رداءه ، فعرف المسلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اصطفاها لنفسه ، فقال رسول الله لبلال فيما بلغنى حين رأى من تلك اليهودية ما رأى : أنزعت منك الرحمة يا بلال حيث تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ وكانت صفية قد رأت فى المنام وهى عروس بكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق أن قمرا وقع فى حجرها ، فعرضت رؤياها على زوجها ، فقال ما هذا إلا لأنك تمنين ملك الحجاز محمداً ، فلطم وجهها لطمة اخضرت عينها منها ، فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها أثر منها ، فسألها ماهو؟ فأخبرته هذا الخبر .

ونلاحظ على هذه الرواية ، وهى رواية مؤرخ أنه كانت هناك معركة جرى فيها الاستيلاء على أحد حصون اليهود فى خيبر ، واسمه

حصن القموص الذى كان لأحد زعماء اليهود واسمه ابن أبى الحقيق ، وفيه وجدت صفية بنت حيى بن أخطب وفتاة أخرى يقال إنها ابنة عم لها ، فأحضرهما بلال حيث مر بهما على بعض قتلى اليهود ، فلما رأتهم التى مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها . وعندئذ رأى الرسول صلى الله عليه وسلم صفية ، فأمر بها فحيزت خلفه ، ويبدو أنه كان يركب دابته ، وألقى عليها رداءه فعرف المسلمون أنه قد اصطفاها لنفسه . وهذه الرواية كما نرى ، شديدة الاقتضاب إلى درجة مخلة ، كما أن فيها تناقضا واضحا ؛ إذ كيف يغضب الرسول عندما يرى ابنة عم صفية تبكى قتلاها ، ويقول أغربوا عنى هذه الشيطانة وهو الذى يعرف جيدا أن الحزن على القتلى من الأهل والأقارب أمر طبيعى لايختلف فيه إنسان عن إنسان ؟ وكيف يصف المرأة بأنها شيطانة وهو الذى نهى عن لعن الحيوانات ؟ ففى مسلم أن عمران بن الحصين قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقة تضجرت ، فلعنتها ، فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : خذوا ماعليها ودعوها فإنها ملعونة ، قال عمران : فكأنى أراها الآن تمشى فى الناس مايعرض لها من أحد . وكان ذلك زجرا للمرأة ولغيرها ، وكان قد سبق نَهْيُها ونَهْيُ غيرها عن اللعن فعوقبت بإرسال الناقة .

وهذا لايتعارض مع الحديث الذى ورد فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد لعن اثنين ، ففى مسلم عن عائشة قالت : دخل على الرسول صلى الله عليه وسلم رجلان فكلماه بشىء لا أدرى ما هو

فأغضباه ، فلعنهما وسبهما ، فلما خرجا قلت : يارسول الله من أصاب من الخير شيئا ما أصابه هذان ، قال وما ذاك ؟ قالت : قلت لعنتهما وسببتهما ، قال أو ماعلمت ما شارطت عليه ربى ؟ قلت : اللهم إنما أنا بشر ، فأى المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجرا .

فما يزعم أنه حدث منه لصفية وابنة عمها لايقاس على ماحدث منه للرجلين حيث إنهما أغضباه ، أما صفية وابنة عمها فلم تغضباه ، حتى ولو كانت ابنة عمها قد بكت وحثت التراب على رأسها فإنها مافعلت ذلك إلا حزنا على أهلها الذين قتلوا فى الحرب . ومما يؤيد ذلك ما رواه مسلم عن أبى هريرة أنه قال : قيل يارسول الله ادْعُ على المشركين ، قال : إنى لم أُبْعَثْ لعَّانا وإنما بُعِثتُ رحمة .

كذلك فإن هناك تناقضا آخر فى الرواية ، فبعد أن لعن الرسول صلى الله عليه وسلم المرأة لام بلالا ؛ لأنه مر بالمرأتين على قتلاهما ، وسأله إذا كانت قد نزعت منه الرحمة ؟ ومعنى هذا أن الرسول يعلم أن فى مرور الناس على قتلاهم عذاب ، وهو نقيض الرحمة . فكيف به ينكر على من يتعذب أن يصرخ ويحثو التراب على رأسه وهو الذى دفعه الحزن على عمه حمزة إلى أن يتوعد المشركين ، فقد روى ابن كثير فى تاريخه عن محمد بن جعفر بن الزبير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال « ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لَأُمَثِّلَنَّ بثلاثين رجلا منهم » .

ثم الأدهى من كل ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى هذا

الموقف المأساوى بين قتلى اليهود وبكاء أقاربهن وعويلهن يأخذ إحدى نسائهم خلفه ويحوزها لنفسه ، ويضع عليها رداءه ، هل هذا معقول ؟!

الرواية الخامسة :

روى هذه الرواية مؤرخ هو ابن الأثير فقال : روى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح خيبر وجمع السبى ، أتاه دحية الكلبى فقال : أعطنى جارية من السبى . قال : اذهب فخذ جارية فذهب فأخذ صفية . قيل : يارسول الله ، إنها سيدة قريظة والنضير ماتصلح إلا لك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذ جارية من السبى غيرها . وأخذها رسول الله واصطفاها ، وحجبها وأعتقها وتزوجها وقسم لها ، وكانت عاقلة من عقلاء النساء .

وهذه الرواية لاتذكر شيئا عن المعركة التي دارت رحاها ، وأسفرت عن سبى صفية فيمن جرى سبيهن من النساء ، ولكنها تذكر شيئا آخر خاصاً بالكيفية التى تعرف بها الرسول على صفية ، ويبدو أن الأمر فى حصول المقاتلين على السبايا لم يكن متروكا لهم ، يأخذون منهن مايصادفهم من النساء بل إنهن كن يُجْمَعْنَ معا فى مكان ، ثم يجرى توزيعهن على من يرغب أو بحسب الاختيار . فها هو دحية يطلب من الرسول أن يعطيه جارية من السبى ، فيقول له اذهب فخذ جارية . وهذا يعنى أن يذهب إلى حيث تتجمع السبايا

ليأخذ إحداهن . يؤيد ذلك ما ذكره ابن هشام نقلا عن ابن إسحاق من أنه كان هناك رجل يسمى « صاحب المغانم » الذى جعل عليها . والرواية تقول : قال ابن إسحاق : وحدثنى من لا أتهم ، عن عبدالله ابن مغفل المزنى ، قال : أصبت من فَيْءِ خيبر جراب شحم ، فاحتملته على عاتقى إلى رحلى وأصحابى . قال : فلقينى صاحب المغانم الذى جعل عليها ، فأخذ بناحيته وقال : هلم هذا نقسمه بين المسلمين ، قال : قلت : لا والله لا أعطيكه ، قال : فجعل يجابذنى الجراب قال : فرآنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نصنع ذلك . قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكا ، ثم قال لصاحب المغانم : لا أبا لك ، خلِّ بينه وبينه . قال : فأرسله ، فانطلقت به إلى رحلى وأصحابى ، فأكلناه . فإذا كان هذا قد حدث فى المغانم فإن حدوثه فى السبايا أولى .

ولكن الغريب فى هذه الرواية ماورد فيها من أنه بعد أن أخذ دحية الكلبى صفية قال بعضهم للرسول « إنها سيدة قريظة والنضير ، ماتصلح الا لك » فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن أمر دحية أن يدعها ويأخذ سَبياً أخرى غيرها ثم أخذها لنفسه . فهنا يظهر الرسول كما لو كان ملكا أو زعيما يرى نفسه أجدرَ بِبَنَاتِ السادة من غيره ممن يرأسهم من المقاتلين ، فلا يكاد يسمع من بعضهم أن صفية ماتصلح إلا له حتى يستجيب فيأخذها من دحية . وماهكذا كانت أخلاق الرسول الذى زوج ابنة عمته لخادمه على الرغم من الاختلاف الشديد فى انتمائهما الطبقى ، فلا يمكن أن نتصور أنه يخالف مبدأه هذا

من أجل صفية وهى سبى يهودية وليست من قريباته كما كانت زينب بنت جحش .

وتروى هذه الرواية بنفس مضمونها ، ولكن بإسناد آخر ، وإن كانت ترجع فى آخر الأمر إلى أنس بن ماللك أيضا . قال أبو داود : حدثنا مسدد ، حدثنا حماد بن زيد عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن ماللك قال : صارت صفية لدحية الكلبى ، ثم صارت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال أبو داود بنفس الإسناد، جمع السبى – يعنى بخيبر – فجاء دحية فقال : يا رسول الله أعطنى جارية من السبى قال : اذهب فخذ جارية ، فأخذ صفية بنت حيى ، فجاء رجل إلى رسول الله فقال : يانبى الله أعطيتَ دحيةَ صفية بنت حُيَىّ سيدة قريظة والنضير ما تصلح إلا لك . قال : ادعوا بها ، فلما نظر إليها النبى قال : خذ جارية من السبى غيرها . وإن رسول الله أعتقها وتزوجها . وأخرجاه من حديث ابن عليه .

ونلاحظ على هذا الحديث الذى كان آخر من رواه أبو داود أنه قال مرة حدثنا مسدد عن حماد بن زيد ، وقال فى الثانية حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال : حدثنا ابن عليه . فكأن أبا داود سمع الحديث مرتين ، مرة من مسدد الذى سمعه من حماد بن زيد ، والثانية من يعقوب بن إبراهيم الذى سمعه من ابن عليه الذى سمعه من عبد العزيز بن صهيب ، وهذا سمعه من أنس .

أما من حيث اختلاف الحديث السابق ؛ فلأنه يضيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما قال له الرجل : إنها سيدة قريظة والنضير ، ما

تصلح إلا له قال : ادعوا بها ، فلما نظر إليها النبى قال لدحية : خذ جارية من السبى غيرها .. ومعنى ذلك أنه لم يكتف بما قيل له عن نسبها الرفيع ، بل أضاف إلى ذلك النظر إليها . فلماذا فعل ذلك ؟ ليس هناك شك فى أنه فعله من أجل أن يرى ما إذا كانت جميلة أم لا ، فلما رآها كذلك أخذها لنفسه . وهذا مانستبعد أن يكون الرسول قد فعله ؛ لأنه مما علمناه عن زيجاته السابقة – لم يكن يحرص على أن يرى المرأة التى سيتزوجها ؛ لأنه كما قال فى حديثه يهتم بالخلق والدين ، ويوصى الشباب بأن يقيموا اختيارهم لزوجاتهم على هذا الأساس . فإذا كان الأمر كذلك فما باله هو يخالف هذا الأمر ويصر على رؤية صفية على الرغم مما قيل عن حسبها ونسبها ؟ ثم ماذا يكون موقفه وهو يتفحص امرأة من السبى أمام أصحابه ، وفيهم عمر وعلى وطلحة وغيرهم من أصهاره وأقاربه ، فضلا عن كونه النبى القدوة . وماذا لو كانت صفية ليست جميلة ؟ هل كان سيردها إلى دحية فيبدو الأمر وكأنه معرض تعرض فيه النساء على النبى ليختار منهن من تحلو فى عينيه ؟

أما الرواية السادسة، وهى عن أنس أيضا ففيها، قال أبو داود : حدثنا محمد بن خلاد الباهلى ، حدثنا بهز بن أسد ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا ثابت عن أنس قال : وقع فى سهم دحية جارية جميلة ، فاشتراها رسول الله بسبعة أرؤس ثم دفعها إلى أم سلمة تصنعها وتهيئها ، قال حماد وأحسبه (يعنى ثابتا) قال : وتعتد فى بيتها صفية بن حيى . تفرد به أبو داود .

ونلاحظ على هذه الرواية التى رواها أبو داود أن بينه وبين أنس ابن مالك أربعة من الرواة ليس بينهم واحد ممن سمع منهم أبو داود الحديث السابق ، اللهم إلا إذا كان حماد بن سلمة هو نفسه حماد بن زيد الذى ورد اسمه فى الحديث السابق ، كما ورد فى الحديث الأول المنسوب إلى مالك أيضا . فإذا كان أبو داود قد سمع أكثر من حديث فى الموضوع ، ولمس مابين بعض عناصرها من تناقض فكيف لم يحاول أن يتحقق من أيهما أصح وأصدق ؟! مثال ذلك أنه فى الحديث السابق الذى رواه بطريقتين فجاء فى الاول مجملا – لم يبين كيف انتقلت صفية من دحية الكلبى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى حين أنه بين فى الثانى أنها انتقلت عن طريق البدل ، حيث أخذها الرسول منه وأمره أن يأخذ جارية أخرى غيرها . أما فى هذا الحديث فإن أبا داود يقول : إن الرسول اشتراها من دحية بسبعة أرؤس ، فأيهما أصح ؟ وهل يتصور من أنس – وهو الذى أسندت إليه هذه الأحاديث كلها – أن يقول مرة إن الرسول أخذها وأعطى دحية جارية غيرها ، وأن يقول مرة أخرى إنه اشتراها منه بسبعة أرؤس ؟!

أما الرواية السابعة وقد أوردها ابن الأثير أيضا فقد جاء فيها : « أخبرنا أبو جعفر بإسناده عن يوسف عن ابن إسحاق قال : حدثنى والدى إسحاق بن يسار قال : لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم القموص – حصن ابن أبى الحقيق – أتى بصفية بنت حيى ومعها ابنة عم لها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أغْرِبوا هذه الشيطانة عنى ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفية فحيزت خلفه ، وغطى عليها بثوبه ، فعرف الناس أنه قد اصطفاها

لنفسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال حين رأى من اليهودية مارأى : يابلال ، أَنُزِعَتْ منك الرحمة حتى تمر بامرأتين على قتلاهما ؟

وهذه الرواية تطابق ماذكره الطبرى فى تاريخه مع اختلاف فى الرواة ، فبينما ترد فى الطبرى أسماء ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق ، فإنها ترد فى ابن الاثير منسوبة إلى أبى جعفر عن يونس عن ابن إسحاق . وهذا معناه أن أكثر من شخص رووا عن ابن إسحاق ماروواه هو عن أبيه إسحاق بن يسار . كذلك نجد فى رواتها ابن حميد ، فهل هو أحد أبناء حميد الذى ورد اسمه فى الرواية الثالثة التى جاءت فى البخارى أو أنه شخص آخر ؟ والملاحظ أننا نجد اسم (ابن حميد) يتكرر فى الرواية الرابعة التى ذكرها الطبرى حيث قال (حدثنا ابن حميد) فمع أن الروايتين الرابعة والسابعة ترجعان إلى ابن إسحاق إلا أن رواتهما عنه يختلفون فى الطبرى عنهم فى ابن الأثير .

تحليل مضمون الروايات

وهكذا نلاحظ أننا من بين عشر روايات قيلت فى زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بصفية بنت حيى بن أخطب ـــ نرى ثمانى روايات منها نسبت إلى أنس بن مالك فى حين نسبت اثنتان إلى ابن إسحاق . كذلك نلاحظ ـــ بالنسبة للروايات التى قيل إن إسنادها يرجع إلى أنس – أن أربعاً منها ذكرت أن صفية كانت لدحية الكلبى أولا ، ثم أخذها منه ، وذلك نظير جارية أخرى . أو نظير عدد من الرءوس ، هذا فضلا عما اشتملت عليه الروايات من حشو ولغو لا فائدة منه ولا نظن أنه مما يتصور حدوثه من الرسول صلى الله عليه

وسلم . أما الحديثان المنسوبان إلى ابن إسحاق فيبدو أنهما أقرب إلى الصحة وأدنى إلى الصواب مما أسند إلى أنس . والدليل على ذلك أن ابن هشام (٣)اقتصر على ذكر ماقاله ابن إسحاق فى هذا الشأن ، ولم يذكر شيئا مما قيل منسوبا إلى أنس بن مالك . فهو يقول تحت عنوان « أمر صفية أم المؤمنين » قال ابن إسحاق : ولما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم القموص ، حصن بن أبى الحقيق ، أتى رسول الله بصفية بنة حيى بن أخطب وبأخرى معها ، فمر بهما بلال — وهو الذى جاء بهما — على قتلى من قتلى يهود ، فلما رآها رسول الله قال : أغربوا (أبعدوا) عنى هذه الشيطانة ، وأمر بصفية فحيزت خلفه ، وألقى عليها رداءه ، فعرف المسلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اصطفاها لنفسه . فقال رسول الله لبلال ، فيما بلغنى ، حين رأى بتلك اليهودية مارأى : أنُزِعَتْ منك الرحمة يابلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ وكانت صفية قد رأت فى المنام وهى عروس بكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، أن قمرا وقع فى حجرها ، فعرضت رؤياها على زوجها ، فقال : ما هذا إلا لأنك تمنين ملك الحجاز محمدا ، فلطم وجهها لطمة اخضرت عينها منها . فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها أثر منه ، فسألها ماهو ؟ فأخبرته هذا الخبر .

وهكذا نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأخذ صفية من دحية الكلبى ، وما كان ليأخذها لو أنها كانت قد صارت إليه مهما

(٣) السيرة النبوية ج ٣ – ٤ صفحة ٣٣٦ .

كانت الأسباب ؛ لأنه كان أعظم وأنزه وأكبر من أن يسلك مثل هذا السلوك الذى يتنزه عنه من هو أدنى منه مكانة ورجولة وشرفا ، حتى ولو كانت صفية هى أجمل نساء عصرها أو أكرمهن حسبا ونسبا . فمن حيث الجمال فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قد صادف بلا شك نساء أخريات جميلات فيما قام به من غزوات وما أكثرها . فليس من المعقول أنه من بين مئات النساء اللاتى سبين لم توجد من تضاهى صفية جمالا أو تزيد عليها . أما النسب والحسب فلا نظن أن الرسول كان يهمه مثل هذا الأمر فى كثير أو فى قليل ، وخاصة إذا كان مصدره اليهود ، فضلا عن أنه لم يكن بحاجة إلى نسب يدعم به دينه أو إلى حسب يزيد به من نفوذه وقوته . وماكان العرب - سواء قبل الرسول صلى الله عليه وسلم أو بعده - يفاخرون بمصاهرة اليهود أو حتى يهتمون بقيام هذه المصاهرة . حتى ولو أن اليهود كانوا مجتمعا مغلقا لايتزوج أفراده ذكورا وإناثا من خارجه . فعلى خلاف ما حدث من قيام علاقات حب بين بعض المسلمين ونساء مسيحيات ذكرتها الكتب ، لم نقرأ أن شيئا من هذا القبيل حدث مع نساء يهوديات ، وذلك لنفور طباع المسلمين ومن قبلهم العرب منهم بسبب راجع إلى بخلهم وشحهم ومكابرتهم وضيق أفقهم وعنادهم وميلهم إلى استغلال الآخرين ، وإلى ماكانوا يمارسونه من قوادة وإدارة لبيوت البغاء .

تفنيد تهمة عدم استبراء الرسول لصفية

أما فيما يتعلق بما قيل من أن الرسول صلى الله عليه وسلم « تزوج صفية بنت حيى بن أخطب ليلة المعركة التى قُبِضَ فيها على زوجها

وقتل». إذْ استعرض السبايا فى آخر النهار- فراقت فى نظره وحملت إلى خيمته ». وهو ماقاله (هـ . ج . ويلز) فإنه يفهم منه بشكل واضح ومباشر أن الرسول تزوج صفية دون أن تستبرىء . ولعل الذى جعل (ويلز) يقول ذلك هو جهله بأحكام الإسلام فى هذا الصدد من ناحية ، وماغلب على ظنه من أن طريقة المسلمين فى معاملة السبايا هى نفس طريقة الغزاة والمحاربين الغربيين ، سواء فى العصور السابقة المسيحية ، أو فى العصور التالية لها ، حيث اعتاد المنتصرون الاستيلاء على نساء المهزومين ومعاشرتهن جنسيا فى الحال شئن أم أبين ، وقد يتركوهن بعد ذلك ليعتدوا على نساء أخريات قد لا يَكُنَّ من السبايا . وفى النهاية يتركون الجميع للضياع والفساد ؛ لذلك تصور أن النبى صلى الله عليه وسلم فعل مع صفية ماكان يفعله قادة الجيوش المنتصرة فى الغرب ، فإنها لما أعجبته وراقت فى نظره حملت إلى خيمته !! فكأن الرسول قد أمضى وقته يتفحص السبايا باحثا عن أجملهن وأكثرهن فتنة وأنوثة وشبابا . وكما قلنا فإن وقوع الأمر على هذا الوجه لايصدم مشاعر القارىء الأوربى العادى ؛ فليس هناك غرابة فى أن يتزوج الرجل الغربى أو يعاشر امرأة بأى كيفية دون أدنى حاجة إلى التأكد من خلوها من الحمل . ولكن القارىء المتخصص والعالم والمستشرق وغيرهم ممن لديهم علم أو حتى مجرد إلمام بأحكام الإسلام فى شأن الزواج لاشك أنهم سوف يعتبرون هذا الذى قيل إنه حدث من الرسول مخالفةً صارخةً لهذه الأحكام يدللون بها على عدم التزام الرسول صلى الله عليه وسلم بأحكام الدين الذى جاء به ويتخذونه حجة يؤيدون بها مزاعمهم بأنه هو واضع

هذا الدين وليس متلقيه بالوحى من الله تعالى ؛ ولذلك فإنه كان يخالفه إذا صادف موقفا تكون مصلحته فيه أو هواه مناقضا لما فرضه من أحكام .

وكما سبق أن قلنا ، فإن عدم وضوح ما قاله معظم المؤرخين وكتاب السيرة المسلمون عن زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بصفية وعدم بيانهم للمدة التى انقضت بين سبيها وزواجه منها ــ يجعل من يقرأ لهم يعتقد أن الأمر قد تم كما صوره (هـ . ج . ويلز) أى أن غزوة خيبر قد بدأت وانتهت فى نفس اليوم وفى المساء تزوج الرسول بصفية . وهو ماسبق أن أخذناه على الرواية الأولى التى ذكرها البخارى منسوبة إلى أنس بن مالك . وكذلك الرواية الثانية . والغريب حقا أن يهتم أنس فى الرواية الثالثة بذكر المدة التى أقام فيها الرسول صلى الله عليه وسلم يبنى عليه بصفية ، أى يدخل بها والتى قال إنها كانت ثلاث ليال ، دون أن يهتم بذكر الأيام والليالى التى استغرقها فتح خيبر ، بل ولا المدة التى استغرقها المسلمون فى المسير إليها والعودة منها إلى المدينة .

ليس ذلك وحسب ، بل إن المؤرخين وكتاب السيرة اختلفوا فيما بينهم حول ما إذا كانت صفية وقت سبيها متزوجة أم مخطوبة ، وهو ما جعل المؤرخين الغربيين يختلفون فيما بينهم أيضا . فبينما يقول (هـ . ج . ويلز) إنها كانت متزوجة وإن الرسول تزوجها فى الليلة التى قتل فيها زوجها فإن مؤرخا آخر هو (ول ديورانت) يرى أنها كانت مخطوبة وليست متزوجة فهو يقول : « إن يهود خيبر لما

استسلموا بعد قتل ثلاثة وتسعين رجلا منهم ، لم يمس الرسول أحداً من الباقين بسوء ما عدا زعيمهم كنانة وابن عم له فقطع رأساهما ؛ لأنهما أخفيا بعض ما يملكان ، وضُمَّتْ صفيةُ وهى فتاة يهودية فى

السابعة عشرة من عمرها كانت مخطوبة لكنانة — إلى نساء النبى ، وإن ذلك كان سنة ٦٢٨ ميلادية ، فلو أن صفية كانت مخطوبة فقط كما يقول (ديورانت) فإن مسألة الاستبراء لا تثور ، ويكون زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بصفية فى نفس الليلة التى فتح فيها خيبر صحيحاً لعد اشترط استبراء البكر . ولكن الراجح أن صفية كانت متزوجة وقت فتح خيبر ووقوعها فى السبى ، وكان زوجها كنانة بن أبى الحقيق الذى يقال إنها كانت قد زفت إليه قبل فتح خيبر بمدة وجيزة ، ولذلك وصفها البعض بالعروس ، وإن كان هناك من يقول إن هذا الزواج لم يكن الأول بالنسبة لها ، وإنما سبق أن تزوجت بسلام بن مشكم الذى كان شاعرا هو الآخر مثل كنانة (٥).

إلا أن ما ذكره ابن كثير (٦) يفهم منه أن صفية لم تتزوج قبل كنانة ابن أبى الحقيق ، فهو يقول : كان من شأن صفية بنت حيى النضيرية أنه لما أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود بنى النضير من المدينة كما تقدم ، فذهب عامتهم إلى خيبر وفيهم حيى بن أخطب وبنو أبى

---

٤ ـــ قصة الحضارة ، المجلد الرابع ، صفحة ٣٩ .

٥ ـــ أسد الغابة ، المجلد ٦ ، صفحة ٦٩ .

٦ ـــ البداية والنهاية ، الجزاء الرابع ، صفحه ١٩٦ .

الحقيق ، وكانوا ذوى مال وشرف فى قومهم ، وكانت صفية إذ ذاك طفلة دون البلوغ ، ثم لما تأهلت للتزويج تزوجها بعض بنى عمها . فلما زفت إليه وأدخلت إليه بَنَى بها ومضى على ذلك ليالٍ رأت فى منامها كأن قمر السماء قد سقط فى حجرها فقصت رؤياها على ابن عمها ، فلطم وجهها ، وقال أتتمنين ملك يثرب أن يصير بَعْلَكِ ؟ فما كان إلا مجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم وحصاره إياهم . فكانت صفية فى جملة السبى ، وكان زوجها فى جملة القتلى ، ولما اصطفاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصارت فى حوزه وملكه كما سيأتى ، وبنى بعد استبرائها وحلها — وجد أثر تلك اللطمة فى خدها فسألها ما شأنها ؟ فذكرت ما كانت رأت من تلك الرؤيا الصالحة ولكن يلاحظ أن ماقاله ابن كثير من أن صفية كانت طفلة دون البلوغ عند ماأجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومها يهود بنى النضير من المدينة يتعارض مع ماقاله (ديورانت) من أنها كانت فى السابعة عشرة من عمرها عند وقوعها فى السبى ، ومعنى هذا أنها لم تكن طفلة يوم تركها المدينة مع قومها ، وذلك لأن هذا الإجلاء كان فى السنة الرابعة للهجرة ، فى حين وقع غزو خيبر فى السنة السابعة للهجرة على أرجح الأقوال ، أى أن بين التاريخين ثلاثة أعوام فقط ، وهى مدة قليلة لا يتصور معها أن تصل طفلة إلى سن البلوغ فتتزوج من سلام بن مشكم ، ثم تمن بعده بكنانة بن أبى الحقيق . وإذا كان هذا قد حدث ، فإن حدوثه يكون فى خيبر وليس فى المدينة ؛ حيث كانت صفية لاتزال طفلة طبقا لما قاله ابن كثير .

وبغض النظر عما قاله أسد الغابة من أن صفية كانت قدتزوجت لأول مرة قبل زواجها من كنانة ، فإن الثابت المحقق أنها عند سبيها كانت زوجة لهذا الأخير ، ومن ثَمَّ كان يجب أن تستبرىء من الحمل قبل زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بها ، وذلك طبقا لما فرضه القرآن الكريم والسنة النبوية . فلا يتصور إذن أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد عقد عليها ودخل بها فى نفس اليوم الذى فتح فيه خيبر كما زعم «ويلز» استناداً إلى الروايات التى وردت فى كتب الحديث والتاريخ والسيرة ، كما ذكرنا . على الرغم من أن هذه الروايات الشديدة الاقتضاب إلى درجة مخلة أكدت أن الرسول صلى الله عليه وسلم تزوج صفية بعد استبرائها .

الدليل على وجوب الاستبراء :

القرآن الكريم واضح وصريح فيما قضى به ونص عليه من وجوب الاستبراء بالنسبة للسبايا . وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [٧]. ويقول ابن كثير [٨]فى تفسيرها أى : وحرم عليكم من الأجنبيات (المحصنات) وهن المزوجات (إلا ماملكت أيمانكم) يعنى إلا ماملكتموهن بالسبى ، فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن . فإن الآية نزلت فى ذلك . وقال الأمام أحمد : حدثنا عبد الرازق ، أخبرنا سفيان ـــ هو الثورى ـــ عن

٧ - النساء : أول الآية ٢٤ .

٨ ـــ المرجع السابق ، صفحة ٢٢٣ :

عثمان البتى ، عن أبى الخليل ، عن أبى سعيد الخدرى قال : أصبنا نساء من سبى (أوطاس) ولهن أزواج ، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج ، فسألنا النبى صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) فاستحللنا بها فروجهن .

ولكن هناك من يذهب إلى أن الآيه نزلت فى سبايا خيبر ، وليس فى سبايا أوطاس ، وهو ماروواه الطبرانى من طريق الضحاك عن ابن عباس . ويرجح ماقاله الطبرى [9] مما سنورده له فيما يلى ماذهب إليه هذا الفريق ، وإن لم يكن الطبرى قد صرح به ، فقد عارض حديث أبى سعيد الخدرى الذى قال فيه إن الآيه فى سبايا أوطاس قائلاً : إن سبايا أوطاس لم يوطأن بالملك والسباء دون الإسلام ، وذلك أنهن كن مشركات من عبدة الأوثان ، وقد قامت الحجة بأن نساء عبدة الأوثان لا يحللن بالملك دون الإسلام ، وإنهن إذا أسلمن فرق الإسلام بينهن وبين الأزواج سبايا كُنَّ أو مهاجرات ، غير أنهن إذا كن سبايا حللن إذا هن أسلمن بالاستبراء . فلا حجة لمحتج فى أن المحصنات اللاتى عناهن بقوله والمحصنات من النساء ذوات الأزواج من السبايا دون غيرهن بخبر أبى سعيد الخدرى إن ذلك نزل فى سبايا أوطاس؛ لأنه وإن كان فيهن نزل فلم ينزل فى إباحة وطئهن بالسباء خاصة دون غيره من المعانى التى ذكرنا ، مع أن الآيه تنزل فى معنى فتعم مانزلت به فيه وغيره فيلزم حكمها جميع ماعَمَّتْه لما قد بينا من

---

٩ ـــ المجلد الخامس ، صفحة ٧ .

القول فى العموم والخصوص فى كتابنا «كتاب البيان عن أصول الأحكام» . ولذلك فإن الطبرى يضيف إلى الاستبراء كشرط لتحليل وطء السبايا شرطاً آخر ، هو أن يَكُنَّ من أهل الكتاب أى يهوديات أو نصرانيات . فهو يقول [10] : فالذى أباحه الله تبارك وتعالى نكاحا من الحرائر الأربع سوى اللواتى حرمن علينا بالنسب والصهر ومن الإماء ما سبينا من العدو سوى اللواتى وافق معناهن معنى ما حرم علينا من الحرائر بالنسب والصهر فإنهن والحرائر فيما يحل ويحرم بذلك المعنى متفقات المعانى وسوى اللواتى سبيناهن من أهل الكتابين ولهن أزواج فإن السباء يحلهن لمن سباهن بعد الاستبراء وبعد إخراج حق الله تبارك وتعالى الذى جعله لأهل الخمس منهن .

ولم يشترط القرطبى ذلك [11] فهو يقول «وقال ابن عباس وأبو قلابة وابن زيد ومكحول والزهرى وأبو سعيد الخدرى : المراد بالمحصنات هنا المسبيات ذوات الأزواج خاصة» ، أى هن محرمات إلا ما ملكت اليمين بالسبى من أرض الحرب ، فإن تلك حلال للذى تقع فى سهمه وإن كان لها زوج . وهو قول الشافعى فى أن السباء يقطع العصمة ، وقاله ابن وهب وابن عبدالحكم ورروياه عن مالك ، وقال به أشهب . يدل عليه مارواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين بعث جيشا إلى أوطاس ، فلقوا العدو فقاتلوهم وظهروا عليهم وأصابوا لهم سبايا ،

١٠ ـــ المرجع السابق ، صفحة ٦ .

١١ ـــ المجلد الخامس ، صفحة ١٢١ .

فكان ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم تحرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَامَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أى فهن حلال لكم إذا انقضت عدتهن . وهذا نص صحيح صريح فى أن الآيه نزلت بسبب تحرج أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم عن وطء المسبيات ذوات الأزواج ، فأنزل الله تعالى فى جوابهم ﴿إِلَّا مَامَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ .

كذلك يقول الشيخ محمد رشيد رضا [١٢] «إلا ماملكت ايمانكم» فالجمهور على أنه استثناء من المحصنات أى إلا ما سبيتم منهن فى حرب دينية تدافعون فيها عن حقيقتكم ، أو تؤمنون بها دعوة دينكم ، ورأيتم من المصلحة ألا تعاد السبايا إلى أزواجهن الكفار فى دار الحرب ، فعند ذلك ينحل عقد زوجيتهن ويَكُنَّ حلالا لكم بالشروط المعروفة فى الشريعة ، فقد روى مسلم من حديث أبى سعيد الخدرى أنه كان سبب نزول هذه الآية تَحَرَّجُ الصحابة من الاستمتاع بسبايا (أوطاس) وأخرج الحديث أيضا أحمد وأصحاب السنن ، وفى هذه الروايات التصريح باشتراط الاستبراء بوضع الحامل لحملها ، وحيض غيرها ثم طهرها ، وقد صرح بعض العلماء كالحنفية وبعض الحنابلة بأن من سبى معها زوجها لاتحل لغيره ، فاعتبروا فى الحل اختلاف الدار : دار الإسلام ودار الحرب . وبعضهم يقول : إن اختلاف الدار لا دَخْلَ له فى حِلِّ السبايا، وإنما سببه أن من سبيت دون

١٢ ــ تفسير المنار ، الجزء الخامس ، صفحة ٤ .

زوجها فإنها إنما تحل للسابى بعد استبراء رحمها للشك فى حياة زوجها، أى عدم الطمع فى لحوقه بها إن فرض أنه بقى حيا إلا على سبيل الندور الذى لا حكم له .

وهكذا لانجد خلافا بين المفسرين حول معنى الآيه ، وهو اشتراط استبراء السبى قبل وطئها سواء كان الوطء فى نكاح أى زواج أو فى غير زواج ، بل إنه فى الزواج أولى . فلا يعقل أن يخالف الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحكم الصريح ، ويتزوج صفية ، ويدخل بها فى آخر اليوم الذى فتح فيه خيبر . خاصة إذا كان هو نفسه قد تحدث فى هذا الشأن ، فنهى عن وطء السبايا إلا بعد استبرائهن.. فقد ذكر ابن كثير [١٣] فى تاريخه قال ، قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد بن أبى حبيب عن أبى مرزوق مولى تجيب عن حسن الصنعانى قال : غزونا مع رويفع بن ثابت الأنصارى المغرب ، فافتتح قرية من قرى المغرب يقال لها جربة ، فقام فيها خطيبا فقال : أيها الناس إنى لاأقول فيكم إلا ماسمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فينا يوم خيبر ، قام فينا رسول الله فقال : لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماء زرع غيره يعنى إتيان الحبالى من السبى ، لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبى حتى يستبرئها ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنما حتى يقسم ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن

---

١٣ ــ المرجع السابق ، صفحة ١٩٢ .

يركب دابة فى فَىْء من المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه . وهكذا روى هذا الحديث أبو داود من طرق محمد بن إسحاق . ورواه الترمذى عن حفص بن عمرو الشيبانى عن ابن وهب عن يحيى بن أيوب عن ربيعة بن سليم عن بشر بن عبيد الله عن رويفع بن ثابت مختصرا وقال حسن . هذا بالإضافة إلى حديثه صلى الله عليه وسلم فى سبايا أوطاس : «ألا لا توطأ الحبالى حتى يضعن حملهن ، ولا الحيالى حتى يستبرأن بحيضة» وهو ما يفيد وجوب الاستبراء على المولى (١٤).

وهكذا نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد كرر النهى فى خيبر ، فهل يعقل أن يقف فى المحاربين يقول ذلك ثم يكون هو أول من يخالف ما نهى عنه القرآن وما نهى هو نفسه عنه ؟ لا نظن أن ذلك مما يمكن أن يتصوره عاقل .

وعلى الرغم من أن الأحاديث التى رويت بشأن فتح خيبر بعامة أو بشأن سبى صفية وزواج الرسول بها بخاصة ـــ لم تشتمل على تفاصيل كافية يبين منها ما إذا كان الرسول قد استبرأها أم لا ، بل إن الإيجاز الشديد لهذه الأحاديث ولغيرها من الروايات التى وردت فى كتب السيرة والتاريخ أدت إلى العكس ، أى إلى خلق الاعتقاد لدى الكثيرين ، وبخاصة المؤرخون والمستشرقون ، بأن الزواج تَمَّ فى مساء اليوم الذى فتحت فيه خيبر ، وبالتالى لم يكن هناك استبراء . إلا أن كثيرا من هذه الأحاديث وتلك الروايات ذكرت الاستبراء صراحة . ففى الحديث الذى رواه أنس ، قال : قدمنا خيبر فلما فتح الرسول

---

١٤ ـــ أبو الحسن المرغنانى ، الهداية شرح بداية المبتدى ، الجزء الرابع ، صفحة ٨٨

الحصن ذكر له جمال صفية بنت حيي بن أخطب وقد قتل زوجها وكانت عروسا ، فاصطفاها النبى لنفسه ، فخرج بها حتى بلغ سد الصهباء حلت . فبنى بها رسول الله «أى أنها لم تكن قد قضت عدتها بعد عندما خرجت من خيبر وأنها أتمت استبرائها عندما بلغوا سد الصهباء فاصبح وطؤها حلالا . وفى حديث آخر رواه أنس أيضا ، قال : وقع فى سهم دحية جارية جميلة ، فاشتراها رسول الله بسبعة أرؤس ، ثم دفعها إلى أم سلمة تصنعها وتهيئها . قال حماد : وأحسبه (أى ثابت) قال : وتعتد فى بيتها صفية بنت حيي . تفرد به أبو داود . ونفهم من هذا الحديث أن صفية قد اعتدت فى بيت أم سلمة ، تمهيدا لزواج الرسول صلى الله عليه وسلم بها . وبطبيعة الحال فإن هذا البيت كان فى خيبر ؛ لأن الزواج حدث بعد خروج المسلمين منها فى طريق عودتهم إلى المدينة . ويقول ابن هشام [١٥]: إن التى هيأت صفية للعرس ليست أم سلمة ، بل أم سليم بنت ملحان ، أم أنس بن مالك . قال ابن إسحاق : ولما أعرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفية ، بخيبر أو ببعض الطريق ، وكانت التى جَمَّلَتْها لرسول الله ومَشَّطَتْها أو أصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان ، أم أنس بن مالك . فبات رسول الله فى قبة له ، وبات أبو أيوب خالد بن زيد ، أخو بنى النجار متوشحا سيفه ، يحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطيف بالقبة ، حتى أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى مكانه قال : مالك يا أبا أيوب ؟ قال : يارسول

١٥ ــ المرجع السابق ، صفحة ٣٣٩ .

الله ، خفت عليك من هذه المرأة ، وكانت امرأة قد قَتَلْتَ أباها وزوجها وقومها ، وكانت حديثة عهد بكفر ، فخفتهُا عليك .

الثابت إذن أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد استبرأ صفية بنت حيى قبل أن يتزوجها . وذلك التزاما منه بما قضى به الكتاب الكريم. وسنته صلى الله عليه وسلم . ولكن بالنظر إلى أن المؤرخين الغربيين والمستشرقين قد لا يعتبرون ذلك دليلا كافيا على حدوث الاستبراء ، ولأن عدم وضوح الأحاديث والروايات المختلفة لا يؤيد بدرجة كافية حدوث الاستبراء ، خاصة مع ماتصوره الأحداث من أن فتح خيبر قد تم بسرعة (يوم ، أو أيام قليلة) مما لا يعد كافيا لحدوث الاستبراء ـــ فإننا نجد أنه من الضرورى بَحْثُ المدة التى استغرقها فتح خيبر ، والفترة التى انقضت بين سبى صفية وزواج الرسول بها لنرى ماإذا كانت كافية لحدوث الاستبراء أم لا .

يقول ابن رشد القرطبى [١٦]: الجمهور على أن عدة الزوجات غير الحرائر حيضتان على أساس أن الحيض شأنه شأن الطلاق ، والحد ينتصف (أى يكون على النصف) مع الرق ، وإنما جعلوها حيضتين ؛ لأن الحيضة الواحدة لا تتبعض . أى أنه لا يمكن القول إن غير الحرة يشترط أن تحيض حيضة ونصفاً حيث إن الشرط بالنسبة للحرة أن تحيض ثلاث حيضات .

أما القرطبى [١٧] فإنه يقول «واختلفوا فى استبرائها بماذا يكون ،

---

١٦ ـــ الجزء الأول ، صفحة ٩٣ .

١٧ ـــ الجزء الخامس ، صفحة ١٢١ .

فقال الحسن : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستبرئون المسبية بحيضة ، وقد روى ذلك حديث أبى سعيد الخدرى فى سبايا أوطاس «لا نوطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تحيض» ولم يجعل لفراش الزوج السابق أثرا حتى يقال إن المسبية مملوكة ولكنها كانت زوجة زال نكاحها ، فتعتد عدة الإماء ، على ما نقل عن الحسن بن صالح قال : عليها العدة حيضتان إذا كان لها زوج فى دار الحرب . وكافة العلماء رأوا استبراءها واستبراء التى لا زوج لها واحدا فى أن الجميع بحيضه واحدة ، والمشهور من مذهب مالك أنه لا فرق بين أن يسبى الزوجان مجتمعين أو متفرقين . وروى عنه ابن بكير أنهما إن سُبِيَا جميعا واستبقى الرجل أُقِرَّا على نكاحهما ، فرأى فى هذه الروايه أن استبقاءه إبقاء لما يملكه ، لأنه قد صار له عهد وزوجته من جملة مايملكه ، فلا يحال بينه وبينها ، وهو قول أبى حنيفه والثورى ، وبه قال ابن القاسم ورواه عن مالك ؛ والصحيح الأول لما ذكرناه ، ولأن الله تعالى قال ﴿إِلَّا مَامَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ فأحال على ملك اليمين وجعله هو المؤثر فيتعلق الحكم به من حيث العموم والتعليل جميعا ، إلا ما خصه الدليل .

أما ابن حزم فإنه يعارض هذا الرأى ، ويذهب إلى أن استبراء السبى يكون بِعَدَدٍ من الحيضات مماثل لما تتم به عدة الحرة [١٨] فهو يقول : واحتج من رأى الاستبراء على هذا الوجه بما روى من أن أصحاب

---

١٨ ــ المحلى ، الجزء العاشر ، صفحة ٣١٩ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابوا سبايا بأوطاس ، فكان الناس تحّرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين ، فأنزل الله عز وجل : ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَامَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ أى فهن حلال لكم إذا انقضت عدتهن . ومن طريق أبى داود حدثنا عمرو بن عون ، أخبرنا شريك عن قيس بن وهب عن أبى الوداك عن أبى سعيد الخدرى رفعه أنه قال فى سبايا أوطاس : لا توطأ حامل حتى تضع ولا غير حامل حتى تحيض ، ومن طريق عبد الرزاق عن معمر عن طاووس: أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مناديا فى بعض مغازيه : لا يَقَعَنَّ رجل على حامل ولا على حائل حتى تحيض ، ومن طريق عبد الرزاق عن سفيان الثورى عن زكريا عن الشعبى : أصاب المسلمون سبايا يوم أوطاس فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يقعوا على حامل حتى تضع ، ولا غير حامل حتى تحيض حيضه ، لا نعلم ورد فى هذا غير ماذكرناه .

قال ابن حزم: حديث طاوس والشعبى مرسلان، ولا حجة فى مرسل ، وخبر الوداك ساقط ؛ لأن أبا الوداك وشريكا ضعيفان ، ثم لو صحت لكانت حجة على من احتج بها ؛ لأن فيها المنع من وطء التى ليست حاملا حتى تحيض ، وهم لا يقولون بهذا ، بل يحدون حدودا ليست فى هذه الآثار ، ومن الكبائر مخالفة أثر يحتج به المرء ويصححه . وأما خبر أبى علقمة فهو الذى لا يصح فى هذا الباب غيره ، فليس فيه ذكر للاستبراء أصلا ، لا بنص ولا بدليل فيه إباحة وطء المحصنات إذا ملكناهن فقط ، فهو عليهم لا لهم ، وأما الذى فى

آخره فهن لكم حلال إذا انقضت عدتهن ، فلا شك أنه ليس من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لو صح أنه من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وهو لا يصح أبدا ــ لَمَا كانت لهم فيه حجه ؛ لأنه إنما فيه إذا انقضت عدتهن ، والعدة المعروفة فى الدين ليست إلا أربعة أشهر وعشرا فى الوفاة ، وثلاثة قروء للتى تحيض من المطلقات ، وثلاثة أشهر للتى لم تحض أو لا تحيض من المطلقات ، ووضع الحمل لمطلقة أو متوفى عنها ، ولا مزيد ، وهم ها هنا جعلوا الاستبراء بحيضة ، وليس هذا عدة ، فبطل أن يكون لهم متعلق فيه أصلا .

غير أن ما عليه الجمهور هو أن السبى تستبرىء بحيضة واحدة ، ويقول ابن تيمية [19]: إن العلماء عامة إنما يوجبون فى ذلك استبراء بحيضة ، وهو اعتداد من وَطْءِ زوج يلحقه النسب ، ووطؤُه محترم وإن كان كافرا حربيا ، فإن محاربته أباحت قتله ، وأخذ ماله ، واسترقاق امرأته ، على نزاع وتفصيل بين العلماء ، لكن لا خلاف أن نسب ولده ثابت منه ، وأن ماءَه محترم لا يحل لأحد أن يطأ زوجته قبل الاستبراء باتفاق المسلمين ، بل لقد لعن النبى صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك ، كما فى الحديث الصحيح فى مسلم : «انه أتى على أمراة محج على باب فسطاط ، فقال : «لعل سيدها يلم بها» قالوا : نعم . قال : «لقد هممت أن ألعنه لعنة تدخل معه قبره ، كيف يورثه وهو لا يحل له ؟ كيف يستعبده وهو لا يحل له» . ونهى أن يسقى الرجل

---

١٩ ــ فتاوى ابن تيميه ، الجزء رقم ٣٢ ، صفحه ٢٤٣ .

ماءه زرع غيره . وهذا هو المتيقن حدوثه من الرسول صلى الله عليه وسلم مع صفية ؛ لأنه إذا كان قد تزوجها بعد أن استبرأها ، وهو ما أكدته الروايات المختلفة ـــ فإن استبراءها كان بحيضة واحدة ، وهذا حكم خاص بالسبى .

إذَنْ فقد كان يجب أن تستبرىء صفية بحيضة واحدة ، ومع ذلك يظل هناك سؤال حول ماإذا كانت المدة التى انقضت ما بين سبيها وزواج الرسول صلى الله عليه وسلم كافية لحدوث الاستبراء أم لا وهذا ما سوف نبينه فيما يلى :

فتح خيبر :

اختلفت الأقوال بشأن السنة التى فتحت فيها خيبر : فهناك قول يذهب إلى أن ذلك كان فى السنة السادسة للهجرة . فى حين يذهب قول آخر إلى أن فتحها كان فى السنة الثامنة للهجرة . ولكن أرجح الأقوال على أنها فتحت فى السنة السابعة للهجرة ، فى المحرم أو فى صفر على خلاف فى ذلك . وقد ذكر الطبرى فى تاريخه أنها فتحت فى شهر صفر من السنة السابعة للهجرة ، وجاء فى معجم البلدان أن النبى صلى الله عليه وسلم فتح خيبر كلها سنة سبع للهجرة ، وقيل سنة ثمان ، وقال محمد بن موسى الخوارزمى : غزاها النبى صلى الله عليه وسلم حين مضى ست سنين وثلاثة أشهر وواحد وعشرون يوما للهجرة ، وحكى موسى عن الزهرى أن افتتاح خيبر فى سنة ست [٢٠] . وقال أحمد بن جابر : فتحت خيبر فى سنة سبع عنوة ،

٢٠ ـــ ابن كثير : البداية والنهاية ، الجزء الرابع ، صفحه ١٨١ .

نازلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبا من شهر ، ثم صالحوه على حقن دمائهم وترك الذرية ، على أن يخلوا بين المسلمين وبين الأرض والصفراء والبيضاء والبزة إلا ما كان منها على الأجساد ، وألا يكتموه شيئا . وقال ابن الأثير : إن غزوة خيبر كان فى المحرم سنة سبع للهجرة : ولما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية أقام بالمدينة ذا الحجة وبعض المحرم ، وسار إلى خيبر فى ألف وأربعمائة رجل معهم مائتا فارس ، وكان مسيره إلى خيبر فى المحرم سنة سبع .

ويبدو أن الخلاف بين من ذكروا أن غزوة خيبر كانت فى المحرم ، ومن ذكروا أنها كانت فى صفر من عام سبعة للهجرة ـــ يرجع إلى أن الذين قالوا بالقول الأول نظروا إلى تاريخ خروج جيش المسلمين من المدينة متجها إلى خيبر . فى حين أن الذين قالوا بالقول الثانى نظروا إلى وصول هذا الجيش إلى خيبر ؛ حيث قدروا أنه قد استغرق فى الوصول إليها المدة المتبقية من المحرم إلى بداية صفر ، حيث إننا لا نجد أن أحدا لا من هؤلاء ولا من أولئك ذكر متى وصل جيش المسلمين إلى خيبر بعد خروجه من المدينة على الرغم من أن المسافة بينهما معروفة ، ويمكن تحديد المدة اللازمة لقطعها على وجه التقريب ، حيث إن الأمر يختلف بحسب السرعة التى يسير بها الجيش . وهو ما يمكننا أن نقوم به .

المدة التى استغرقها جيش المسلمين للوصول إلى خيبر :

يقول ياقوت فى معجم البلدان : إن خيبر هى ناحية على ثمانية بُرُدٍ

(جمع بريد) من المدينة لمن يريد الشام . والبريد ثلاثة فراسخ عند العرب ، وفرسخان عند الفرس ، وأربعة عند المغاربة ، والفرسخ ثلاثه أميال . ومعنى ذلك أن المسافه بين المدينه وخيبر كانت أربعة وعشرين ميلا ، إلا أنه يبدو أن تقدير ياقوت للمسافه بين المدينة وخيبر لم يكن دقيقا ؛ فقد جاء فى القاموس الإسلامى (أحمد عطية الله) تحت مادة خيبر أن خيبر تبعد عن المدينة بنحو ستين ميلا ، كانت تقطعها القوافل فى ثلاثة أيام . كذلك جاء فى الموسوعة العربية الميسرة أن خيبر واحة بالحجاز على بعد ٩٥ كم شرق المدينة ، تقع فى حرة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٨٥٠ مترا بها عدة قرى أهمها خيبر التى تقع فى وادى الزبدية أكبر وديان المنطقة .

إلا أنه بالنظر إلى ما ذكر من أن جيش المسلمين قد توقف فى سيره إلى خيبر لا ستطلاع موقف غطفان من يهود خيبر ، حيث إن هذه القبيلة ، كانت ترتبط معهم بحلف وأنها خرجت لتمد لهم يد العون لما علمت بقدوم جيش المسلمين ، ثم لما خافت أن يباغت جيش المسلمين مواطنها فيغير عليها عادت إليها تاركة اليهود وشأنهم ، فإنه من المرجح أن يكون وصول المسلمين مشارف خيبر من وقت خروجهم من المدينة قد استغرق ما بين ثلاثه أيام إلى سبعة أيام . وهى المدة التى كانت قد تبقت من شهر المحرم ، أى أنهم بدءوا حصارهم لخيبر فى أول صفر . فإذا كان ذلك صحيحا فما المدة التى استغرقها فتحهم لخيبر ؟ يهمنا قبل أن نبحث فى هذا الموضوع أن نقدم تعريفا لخيبر وطبيعتها ومم تكون ؛ حيث إنه لكثرة الحديث عن فتح خيبر بشكل إجمالى وشديد الإيجاز غلب على ظن الناس أن خيبر هذه كانت

قرية أو مدينة صغيرة عادية يمكن لجيش المسلمين أن يضرب عليها حصارا حتى يجهد أهلها ثم يغزوها ، أو أن يباغتها فيخترقها بجنوده الذين ينطلقون فى السكك يقتلون المقاتلة ويسبون الذرية على حد قول أنس بن مالك الذى بَسَّط الأمور إلى الحد الذى يجعل من يقرأ كلامه يتصور أن المعركة كانت مطاردة من المسلمين لليهود داخل طرق خيبر ؛ وليس هكذا كان الأمر .

معنى خيبر ومم تتكون ؟

يقول ياقوت : لفظ خيبر بلسان اليهود الحصن ؛ ولكون هذه البقعة تشتمل على هذه الحصون سميت خيابر . إذَنْ فخيبر لم تكن مدينة بالمعنى المعروف ، أو قرية بالشكل المألوف بل كانت ثكنة عسكرية ضخمة تنتشر فيها الحصون القوية التى اعتاد اليهود أن يقيموا فيها بعد أن يجعلوها منيعة بجدرانها السميكة العالية وأبوابها الصغيرة المتينة المصنوعة من كتل الخشب التى لا تخترقها السهام ، لا تؤثر فيها النار بسهولة ، يوصدونها من الداخل ويثبتونها بالحديد والمتاريس ، أما جدرانها العالية فصماء حجرية ليس فيها من الفتحات إلا مايسمح لرماتهم بإطلاق السهام والنبل دون أن تنال منهم سهام المهاجمين ونبلهم . أما فى داخل هذه الحصون فتوجد مساكنهم ومستودعات طعامهم وآبارهم وكافة مايلبى احتياجاتهم ، بحيث يستطيعون البقاء بداخلها مددا طويلة إذا ضرب عليهم الحصار . وكانوا يخرجون فى الصباح للإشراف على مزارعهم ونخلهم الذى كان كثيرا ، وكانوا إذا فرغوا من عملهم عادوا إلى حصونهم وأغلقوا

أبوابها عليهم إلى الصباح التالى . وكانت المنطقة التى يطلق عليها اسم (خيبر) تشتمل على سبعة حصون ، وأسماء حصونها طبقا لما ذكره ياقوت وغيره هى : حصن ناعم ، وحصن القموص وهو حصن أبى الحقيق الذى كان ابنه زوجا لصفية ، وحصن الشق ، وحصن النطاة ، وحصن السلالم ، وحصن الوطيح ، وحصن الكتيبة . فليس من المعقول إذَن أن يستولى المسلمون على هذه الحصون كلها فى يوم واحد كما يوحى بذلك حديث أنس . أما ماذكره من سعى المسلمين فى السكك يقتلون المقاتلة ، فلعله قصد به من كان قد تخلف من اليهود خارج هذا الحصن أو ذاك ، بعد أن لم تسعفهم خطاهم لبلوغ حصونهم فرار من المسلمين ، بعد أن فوجئوا بهم يهاجمونهم فى وقت مبكر من الصباح ، فلما رآهم المسلمون طاردوهم وانتهى اشتباكهم معهم فى قتال إلى قتلهم . ولا يحسبنَّ أحدٌ أن هؤلاء اليهود كانوا عزلا من السلاح فقد كانوا يتأهبون لحرب المسلمين بعد أن فعلوا مافعلوا ببنى عمومتهم من يهود بنى قريظة والنضير الذين كانت بعض فلولهم قد وصلت إلى خيبر منذ بعض الوقت ، وأخذت تعد العدة للانتقام من المسلمين ، أما هؤلاء الذين لاذوا بالحصون أو كانوا لا يزالون فيها لم يغادروها ، فإنهم شرعوا يدافعون عن حصونهم بما لديهم من أنواع السلاح ، فرموا المسلمين بالسهام والنبل وكرات النار والحجارة ؛ ليحولوا بينهم وبين الاقتراب من أسوار حصونهم واقتحام أبوابها .

ولم تكن قوة يهود خيبر بالتى يستهان . خاصة بعد أن انضم إليهم إخوانهم يهود بنى النضير الذين كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد

أجلاهم عن المدينة فى السنة الرابعة للهجرة ، وذلك بعد أن حاصرهم خمسة عشر يوما حتى صالحوه على أن يحقن لهم دماءهم ، وله الأموال والحلقة ، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم ويسيرهم إلى (أذرعات) الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيرا وسقاء «ففعلوا فاحتملوا من أموالهم مااستقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به ، فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، فكان من أشرافهم ممن سار منهم إلى خيبر سلام بن أبى الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وحُيَيُّ بن أخطب والد صفية ، فلما نزلوها دان لهم أهلها .

ولكن هل اكتفى يهود بنى النضير ــ وعلى رأسهم هؤلاء الثلاثه الكبار ــ بمخالفة ماعاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم من السير إلى أذرعات بالشام ، وتوقفهم فى خيبر حيث فرضوا عليها سيطرتهم ودانت لهم ؟ كلا ، بل إنهم أخذوا يتصلون ببنى عمومتهم من يهود بنى قريظة الذين كانوا مايزالون فى المدينة يتآمرون معهم على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويشجعونهم على التحالف مع قريش وغيرها من القبائل من القضاء على بنى قريظة .

وكان ما كان من أمر بنى قريظة الذين قتلوا المسلمون محاربيهم . وكان فيمن قتلوا حيى بن أخطب والد صفية . ويقول الطبرى عن غزوة بنى قريظة : «ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم قسم أموال بنى قريظة ونساءهم على المسلمين ... واصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن جنافة إحدى نساء بنى عمرو بن قريظة ،

فكانت عند الرسول صلى الله عليه وسلم حتى توفى عنها وهى فى ملكه . وكان فتح بنى قريظة فى ذى القعدة أو فى ذى الحجة من سنة ست هجرية .

وهكذا يكون حيى بن أخطب قد قتل فى المدينة فى حين كانت ابنته فى خيبر مع كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق الذى كان قد تزوجها . وبموت حيى بن أخطب تقاسم زعامة اليهود مع سلام بن أبى الحقيق ابن عمه . وبطبيعة الحال فإنهما عقدا العزم على ألا يستسلم اليهود للمسلمين ، وأن يقاوموهم حتى لا يحدث لهم ما حدث لبنى قريظة . ولا شك أن يهود بنى النضير عشيرة صفية بنت حيى أقروهم على ذلك ؛ لكى يثأروا من المسلمين ، وليقضوا عليهم أو يهزموهم فلا تقوم لهم قائمة ، ويعودوا هم إلى المدينة التى سبق أن أجلاهم المسلمون عنها . فهل يتصور بعد كل ذلك أن تبدأ المعركة فى أول النهار وتنتهى فى آخره ، لكى يتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم من إحدى السبايا وهى صفية فى مساء هذا اليوم ؟ .

وكيف يقبل ذلك وقد رآها مع قريبتها التى كانت تبكى على قتلاهم ، وهو رسول الرحمة الذى أنّب بلالا ؛ لأنه مر بهما على القتلى . كذلك هل يتصور أحد أن يستولى المسلمون على سبعة أو عشرة حصون فى يوم واحد بواقع حصن كل يوم ، فى حين أنهم لم يستولوا على حصون بنى قريظة إلا بعد حصار دام خمسة وعشرين يوما مع الفارق الكبير بينها وبين حصون خيبر ؟ إن الكلام عن فتح خيبر كما ورد فى بعض الأحاديث يجعل الأمر يظهر كما لو كان نزهة أو رحلة

قام بها المسلمون فقتلوا وسبوا واستمتعوا بالسبى ، ثم عادوا محملين بما حصلوا عليه من أموال اليهود ومتاعهم . وهذه بلا شك صورة سيئة ، وأسوأ منها أن يقال إن الرسول صلى الله عليه وسلم فتح خيبر نهارا ، وتزوج صفية مساء بعد أن أخذها من أحد رجاله ، أو بعد أن أبلغه بعضهم بِحَسَبِها ونَسَبِها ، أو بعد أن استعرض السبايا فرآها فأعجبه جمالها . وكلها أمور يمكن تصور حدوثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان مثاليا فى سلوكه وخلقه ومواقفه جميعا ، والتزامه الشديد بأحكام الإسلام وبمبادئه وقيمه ، بحيث إنه لم يُعْرَف عنه انه خالفها أبدا ، فما باله يفعل ذلك فيتزوج صفية دون أن يستبرئها من الحمل ويدخل بها ودماء اهلها وعشيرتها لم تجف ؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا .

المدة التى استغرقها فتح خيبر

طبقا لما قاله المؤرخون فإن بداية غزو خيبر كانت فى الأيام الأخيرة من شهر المحرم ، حيث تحرك جيش المسلمين من المدينة متجها إلى خيبر . أما المعارك التى دارت بين هذا الجيش وجيش اليهود فقد بدأت مع بداية شهر صفر من السنة السابعة للهجرة . ولكن ماهى المدة التى استغرقها فتح خيبر والاستيلاء على حصونها ؟ هذا مالم يهتم معظم المؤرخين بذكره ، وقليلون منهم ذكروا أنها كانت خمسة عشر يوما أو خمسة وعشرين يوما . وكلا التقديرين غير صحيح بالمرة ؛ لأنه لا يتفق مع الظروف والأحوال التى سبق أن ذكرناها من حيث عدد الحصون وقوتها ودوافع المقاتلين اليهود . أما ابن الأثير فهو وإن

لم يكن ذكر المدة التى استغرقها فتح خيبر على سبيل التحديد وبوضوح كاف ، إلا أنه ذكر الوقت الذى عاد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم مع جيش المسلمين إلى المدينة . فهو يقول : «لما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر أقام بالمدينة جماديين ورجباً وشعبانَ ورمضانَ وشوالًا يبعث بالسرايا ، ثم خرج فى ذى الحجة معتمرا عمرة القضاء [21]. وهذا معناه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قضى فى خيبر صفراً وربيعاً الأول وربيعاً الثانى ، وعاد إلى المدينة فى شهر جمادى الأولى أى أن فتح خيبر استغرق ثلاثة شهور كاملة ، وليس خمسة عشر يوما أو خمسة وعشرين يوما ، أو ستة أسابيع ، وهو ماقاله صاحب القاموس الإسلامى .

وفيما يتعلق بوقوع صفية بنت حُيَىٍّ فى السبى فإنه كان فى الأيام الأولى للغزو . يقول ابن هشام: [22]كان أول حصون خيبر التى افتتحها الرسول حصن ناعم ، وعنده قتل محمود بن مسلمة ، ألقيت عليه منه رحا فقتلته . ثم حصن « القموص » حصن بنى أبى الحقيق ، وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم سبايا ، منهن صفية بنت حيى بن أخطب ، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وبنت عم لها ، فاصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية لنفسه . أما الاستاذ أحمد عطية الله فإنه يقول إن المسلمين بدءوا بالاستيلاء على

---

٢١ - ابن الأثير ، المرجع السابق الجزء الثانى ، صفحة ٢٢٧ .
٢٢ - المرجع السابق ، صفحة ٣٣١ .

حصن القطاة الذى مات فى الدفاع عنه زعيم اليهود سلام بن مشكم فخلفه فى السيادة الحارث بن أبى زينب ، ثم استولوا على حصن ناعم ، فحصن القموص الذى سماه حصن «القميص» ثم حصون الصعب وأبى الحقيق ، ثم حصونٍ أخرى بلغ عددها خمسة حصون . أى أنه جعل حصن «القموص» غير حصن أبى الحقيق ، فى حين يقول معظم المؤرخين المسلمين إن حصن «القموص» هو حصن أبى الحقيق ؛ لأنه كان صاحبه ، وقد يسمى «القموص» حصن أبى الحقيق نسبة إلى مالكه . كذلك فإنه بينما قال ياقوت إن عدد الحصون كان سبعة فإن أحمد عطية الله يذكر عشرة حصون ، والحصون الزائدة عنده هى : حصن أبى الحقيق ، وحصن الزبير ، وحصن الصعب ، وهى التى لم يذكرها ياقوت . وكيفما كان الأمر فى عدد الحصون أو ترتيب سقوطها فى أيدى المسلّمين فالذى عليه الإجماع أن صفية كانت ممن سباهن المسلمون من النساء اليهوديات بعد استيلائهم على حصن القموص، وهو حصن زوجها ، والخلاف حول ترتيب هذا الحصن فى قائمة الحصون التى استولى عليها المسلمون تباعا ينحصر فى كونه كان الثانى أو الثالث فى الترتيب ، وإن كان فى أرجح الأقوال يأتى الثانى فى الترتيب . وهذا معناه أن صفية بنت حيى وقعت فى السبى فى الأسبوع الثانى أو الثالث من بدء الغزو على أبعد تقدير ، وأنها ظلت سبيا لم يتحدد موقف الرسول منها من حيث صيرورتها ممن ملكت يمينه ، أو أنها ستصبح زوجة له حتى نهاية استيلاء المسلمين على آخر حصون خيبر وإتمامهم فتحها ، وهى مدة لاتقل عن شهرين كاملين يكفيان بدون شك لاستبرائها لا

بحيضة واحدة بل بحيضتين ، حيث إنه قيل إنها لم تحل إلا بعد الخروج من خيبر وبلوغ جيش المسلمين سد الصهباء حيث عقد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بها . وكانت قد أمضت المدة بين سبيها وحيازة الرسول لها وبين زواجه منها فى بيت أم أنس بن ماللك كما أسلفنا ، فى حين كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقود المسلمين فى حربهم ضد اليهود واستيلائهم على حصونهم الواحد تلو الآخر .. فليس الأمر كما تصوره « ويلز » : حرب بالنهار وزواج بالليل !

أما ما قيل من أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما رأى صفية وضع عليها رداءه ، ففهم المسلمون أنه قد حازها لنفسه ، فإنه كلام فيه نظر وهو ما سنبينه فيما يلى :

مغزى وضع الرسول رداءه على صفية

الملاحظ أن الأقوال اختلفت حول هذا الأمر : فمن قائل إن ذلك قد حدث عندما شاهد الرسول صلى الله عليه وسلم صفية بعد أن مرت مع ابنة عم لها على قتلاهما فصرخت ابنة عمها وَوَلْوَلَت وحَثَت التراب على رأسها ، وإن الرسول حاز صفية خلفه ووضع عليها رداءه ، فعرف المسلمون أنه قد اصطفاها لنفسه . ومن قائل إن ذلك قد حدث بعد أن خرج المسلمون من خيبر وبلغوا سد الصهباء حيث أركب الرسول صفية خلفه ، ووضع رداءه عليها ، فعلموا أنه قد حجبها ، وبالتالى فهى زوجته وإحدى أمهات المؤمنين . وإذا كان وضع الرسول لردائه على صفية بعد زواجه بها له الدلالة التى

استخلصها الناس ، وهى أنه ضرب عليها الحجاب لأنه تزوجها ، وبالتالى يسرى عليها مايسرى على أمهات المسلمين ــ فإن ماقيل من تفسير لوضعه الرداء عليها عند سبيها ليس هناك مايرجح الدلالة التى استخلصوها منه ، وهى أنه قد اصطفاها لنفسه ؛ وذلك للأسباب الآتية :

أولا ــ أنه لم توجد سوابق من هذا النوع قام فيها الرسول بالتعبير عن اصطفائه لإحدى السبايا بوضع ردائه عليها ، وهى عادة قديمة كانت لدى العرب فى الجاهلية ، حيث كان الابن الذى مات أبوه عن زوجة غير أمه يلقى عليها بردائه ؛ دلالة على أنه سوف يتزوجها . وهو ماحرمه الإسلام ، وعاقب عليه بالإعدام ، باعتبار زوجة الأب من المحارم ؛ لكونها فى مرتبة الأم . والحالة الوحيدة التى اصطفى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم إحدى السبايا وكانت يهودية أيضا وهى السيدة ريحانة بنت عمرو بن جنافة القرظية التى سبيت فى غزوة بنى قريظة– لم يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم فيها ذلك .

ثانيا ــ أن ماحدث من الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك من تخييره صفية بين أن يعتقها ويتزوجها أو يردها إلى أهلها ينفى أن يكون قد قصد منذ البداية أن يتخذها سبيا ؛ فقد روى أحمد « أن النبى صلى الله عليه وسلم اصطفى صفية بنت حيى ، فاتخذها لنفسه وخيرها بين أن يعتقها وتكون زوجته أو يلحقها بأهلها ، فاختارت أن يعتقها وتكون زوجته » . ويقول الشوكانى : إن هذا دليل على أن من جرى عليه ملك المسلمين من السبى يجوز رده إلى الكفار إذا كان

على دينه . ومن هذا يمكن أن نستنتج مما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن يقصد به التعبير عن حيازته لصفية على سبيل ملك اليمين ، لأنه لم يخيرها بين أن تكون زوجة أو سبيا كما سبق أن فعل مع ريحانة التى فضلت أن تبقى سبيا ، بل خيرها بين أن يعتقها ويردها إلى اهلها وأن يعتقها ويتزوجها ، فاختارت الثانية .

ثالثا ــ أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان من الخلق والرحمة بالناس واحترام آدميتهم وتكريمهم ، بحيث لايتصرف معهم كما لو كانوا سلعة أو بضاعة أو جمادا يلقى المرء رداءه عليه ، تعبيرا عن امتلاكه له ، ودون أن يلقى بالا إلى كونه إنسانا له أن يختار مصيره . وإذا كان قد ترك غيره من المسلمين يفعلون ذلك دون أن يعيروا اهتماما لرغبة السبايا فإنما كان ذلك عرفا شائعا وتقليدا سائدا واجهه بهدوء وروية بأن أخذ يضرب لهم المثل بما يفعله ، وقد ضرب لهم المثل فى السبايا بأن سأل صفية عما تختاره من الزواج به أو العودة إلى أهلها ، فما كان ليقبل أن يستبقيها رغم أنفها أو يعاشرها بدون رضاها . وما فعله الرسول صلى عليه وسلم مع صفية يعد تطورا فى معاملة السبايا يختلف عما كان عليه الوضع عند سبى ريحانة ، وهذه سمة هامة وبارزة من سمات التشريع الإسلامى ، توضح كيف أخذ بمبدأ التدرج والملاءمة وليس الطفرة ، وعدم أخذ الظروف والأحوال بعين الاعتبار ، أما ماحدث منه عندما حاز صفية يوم أن وقعت فى الأسر من وضعه لردائه عليها فإننا نجد تفسيره فى الظروف التى حدث فيها ذلك : فمن ناحية كانت المعركة التى دارت للاستيلاء على حصن القموص عنيفة بلا شك . ففى داخل الحصن أناس يتمثلون

ماحدث لبنى عمومتهم من يهود بنى قريظة الذين كان فيهم حيى بن أخطب والد صفية ؛ ولذلك فإنه لما سقط الحصن اعترى الخوف النساء وغيرهن ممن بقى على قيد الحياة ممن كانوا فى الحصن ، وبطبيعة الحال فرت النساء فى كل اتجاه بما عليهن من ثياب معفرات متربات مشعثات الشعر فزعات مولولات ، وكانت صفية فى السابعة عشرة من عمرها ابنة أحد كبار زعماء اليهود . فلما سيقت مع الأسيرات ورآها النبى صلى الله عليه وسلم أشفق عليها وعلى قريبتها ولام بلالا ؛ لأنه مر بهما على قتلاهما . وكما هو معلوم فإن إحساس من كان عزيزا بالذل والهوان يفوق إحساس غيره ؛ ولذلك قيل : ارحموا عزيز قوم ذل . وما كان الرسول صلى الله عليه وسلم بما فعله يفرق فى المعاملة بين الناس ، ولكنه راعى ـــ ولا شك ـــ ظروف الفتاة الصغيرة التى لاتحتمل مايحتمله غيرها . هذا فضلا عن كونه أباً لبنات مثلها ، وما عرف عنه من رحمة بهن وحب لهن وحدب عليهن .

ومن ناحية أخرى فقد كان الجو يومئذ حارا ، يحتاج فيه المرء إلى ما يقيه حرارة الشمس اللاهبة ، ومن يفر من خطر محدق لا يفكر إلا فى النجاة بنفسه ، فينطلق تاركا وراءه كل شيء . وربما كانت الثياب التى فرت فيها صفية لا تسترها بما فيه الكفاية ، فضلا عن عدم كفايتها لوقايتها من الحر الذى يبدأ مبكرا فى الصحراء حيث توجد خيبر . وقد تبين من المقابلة بين التقويمين الهجرى والميلادى أن أول المحرم من السنة السابعة للهجرة يوافق ١١ من مايو من عام ٦٢٨ ، ومعنى ذلك أن فتح خيبر كان فى شهر يونيو ، وأنه امتد إلى شهر

اغسطس. والمرجح أن وقوع صفية فى السبى كان قرب نهاية يونيو ، حيث ترتفع درجة الحرارة بشكل ملحوظ . ومما يؤيد ذلك ماذكره ابن كثير [٢٣] عن أبى عثمان النهدى ، أو عن أبى قلابة قال : لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم خيبر قدم والثمرة خضرة . قال : فأسرع الناس إليها فحموا (أى أصيبوا بالحمى) فشكوا ذلك إليه فأمرهم أن يقرسوا الماء فى الشنان [٢٤] ثم يجروه عليهم إذا أتى الفجر ويذكروا اسم الله عليه ، ففعلوا ذلك ، فكأنما نشطوا من عُقُل . قال البيهقى : ورويناه عن عبدالرحمن بن رافع موصولا وعنه بين المغرب والعشاء .

فلهذا السبب – وليس لغيره – وضع الرسول صلى الله عليه وسلم رداءه على صفية . والله تعالى أعلم .

هذا هو ماحدث فى خيبر ؛ معركة طويلة شرسة ، استغرقت مدة لاتقل عن شهرين ، وقعت السيدة صفية فى بدايتها فى أسر المسلمين ، فلما رآها الرسول صلى الله عليه وسلم أشفق عليها من أن تقع فى يد من لايُقدِّر ظروفها القاسية ، من حيث إنها كانت صغيرة فى السن وابنةَ كبير وزوجةَ كبير أيضا من كبراء قومها ، فأراد أن يجنبها مذلة السبى ، ويعوضها شرفاً بشرف أكبر ، دون أن ينظر إلى جمالها أو فتنتها ، أو إلى أنها ابنة ملك لاتليق إلا بملوك إلى آخر هذا

---

(٢٣) البداية والنهاية ، جـ٤ ، صفحة ١٩٥

(٢٤) الشنان : الأسقية الخلقة ، وهى أشد تبريدا للماء من الجدد ـــ أى أن القديم يبرد الماء أشد مما يبرده الجديد .

اللغو الذى لا نظن أنه حدث ، وإنما هو من الإضافات التى حدثت فى عهود لاحقة كان فيها الكلام عن النساء لا يخضع لقيود ولا تحده حدود ، وظلموا أنس بن مالك ؛ إذ أظهروه فى صورة الرجل الذى يثرثر فى أمور من هذا النوع فيقول فى كل مرة كلاما مختلفا .

ولعلنا لمسنا إلى أى حد طغت هذه الحكايات على الحقيقة فى شأن غزوة المستوطنة اليهودية الحصينة فى خيبر ، والتى كان الاستيلاء عليها ضروريا للغاية ؛ لكى ينفتح الطريق إلى بقية المستوطنات فى أقصى شمال الجزيرة العربية . ولا شك أن القضاء على ذلك العدد الكبير من المستوطنات اليهودية فى الحجاز هو ملحمة عظيمة يجدر بنا أن نعيد كتابتها بأسلوب جديد يتيح لشباب الأمة الإسلامية الفرصة لمعرفة التاريخ المجيد للإسلام ؛ ليكون له ذلك زادا فى حاضره ومستقبله .

المراجع

أولا ــ الكتب

ــ القرآن الكريم

ــ التوراة

ــ تفسير ابن جرير الطبرى

ــ تفسير القرطبى

ــ تفسير ابن كثير

ــ تفسير المنار

ــ صحيح البخارى

ــ فتح البارى شرح صحيح البخارى ، لابن حجر الهيثمى

ــ صحيح مسلم

ــ شرح صحيح مسلم للنووى

ــ سنن أبى داود

ــ مسند الإمام أحمد بن حنبل

ــ جامع الترمذى

ــ أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، ابن الأثير ، كتاب الشعب ، دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٠

ــ الإصابة فى تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلانى ، دار الكتاب العربى ، بيروت .

ـــ الأغانى ، للأصبهانى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٠
ـــ إمبراطورية العرب ، جون جلوب ، تعريب خيرى جماد ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٦٦
ـــ بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، ابن رشد القرطبى ، مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٥٠
ـــ البداية والنهاية ، ابن كثير ، مكتبة المعارف ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٨١
ـــ تاريخ الإسلام ، السياسى والدينى والثقافى ، دكتور حسن إبراهيم ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة التاسعة ، القاهرة ١٩٧٩
ـــ تاريخ الإسلام ، المغازى ، شمس الدين الذهبى ، دار الكتب الإسلامية ، دار الكتاب المصرى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٥
ـــ تاريخ الأمم والملوك ، ابن جرير الطبرى ، روائع التراث العربى ، بدون تاريخ
ـــ تاريخ التمدن الإسلامى ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ .
ـــ تاريخ الجنس العربى فى مختلف الأطوار والأدوار والأقطار ، محمد عزة دروزة ، الجزء الأول ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ـــ بيروت .
ـــ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، فيليب حتى ، ترجمة جورج حداد ، وعبد العظيم رانق دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٨ .

ـ التاريخ العربى وجغرافيته ، أمين مدنى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ .
ـ التاريخ العربى القديم ، ديتلف نيلسن ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ .
ـ تخريج الدلالات السمعية ، أبو الحسن على بن محمد الخزاعى التلمسانى ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٩٨٠ .
ـ الدعوة إلى الإسلام ، توماس أرنولد ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن ، والدكتور عبد المجيد عابدين ، والدكتور إسماعيل النحراوى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧١ .
ـ السيرة النبوية ، ابن هشام ، مصطفى البابى الحلبى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٥ .
ـ الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، الطبعة الثانية ، دار التحرير للطبع والنشر ، القاهرة ١٩٦٩ .
ـ العرب والإسلام والخلافة العربية ، بليايف ، ترجمة الدكتور أنيس فريحة ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٧٣ .
ـ العرب قبل الإسلام ، دار الهلال ، القاهرة .
ـ فتوح البلدان ، البلاذرى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧ .
ـ فجر الإسلام ، أحمد أمين ، الطبعة الثانية عشرة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٤ .
ـ القاموس الإسلامى ، أحمد عطية الله ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٣ .

ـــ قصة الحضارة ، ول ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٢ .
ـــ الكامل فى التاريخ ، ابن الأثير ، دار صادر بيروت ، ١٩٨٢ .
ـــ لسان العرب ، ابن منظور ، دار المعارف ، القاهرة بدون تاريخ .
ـــ مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، بدون تاريخ .
ـــ المحلى ، ابن حزم ، منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت
ـــ مروج الذهب ، المسعودى ، الطبعة الرابعة ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٦٥ .
ـــ معالم تاريخ الإنسانية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، الطبعة الثالثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ .
ـــ الهداية شرح بداية المبتدى ، أبو الحسن المرغينانى ، مكتبة محمد على صبيح ، القاهرة ١٩٦٦ .
ـــ معجم البلدان ، ياقوت الحموى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ١٩٧٩ .

ثانيا ـــ دوائر المعارف والموسوعات :

ـــ دائرة المعارف الإسلامية
ـــ دائرة المعارف الأمريكية :
ـــ الموسوعة الإسلامية الميسرة
ـــ الموسوعة العربية الميسرة
ـــ الموسوعة الثقافية

المحتويـــات

الموضوع	الصفحة
المقدمــة	٥

الفصــل الأول :

ــ تاريخ المستوطنات اليهودية فى الحجاز	١٩
ــ العبرانيون ، اليهود ، بنو اسرائيل	١٩
ــ علاقة العرب باليهود	٢٣
ــ ظهور اليهود فى الجزيرة العربية	٣٥
ــ يثرب أو المدينة	٤٩
ــ مستوطنة تيماء	٦٥
ــ مستوطنة تبوك	٦٨
ــ مستوطنات أخرى فى فدك ، أدرعات ، مقنا وأذرح	٦٨

الفصــل الثانــى :

ــ كيف قضى المسلمون على المستوطنات اليهودية	٧٣
ــ عقد المرادعة وغزوة بنى قينقاع	٧٧

ـ استخدام اليهود الشعر للطعن فى اعراض المسلمات ٨٥
ـ غزوة بنى النضير ٨٦
ـ غزوة بنى قريظة ١٠١
ـ غزوة تبوك ١١٨

الفصل الثالث :

ـ غزوة خيبر وزواج الرسول ﷺ من صفية بنت حيى ١٢٧
ـ الروايات التى قيلت فى زواج الرسول ﷺ بصفية ١٣٠
ـ الرواية الأولى ١٣١
ـ الرواية الثانية ١٣٢
ـ الرواية الثالثة ١٣٤
ـ الرواية الرابعة ١٣٩
ـ الرواية الخامسة ١٤٢
ـ الرواية السادسة ١٤٥
ـ الرواية السابعة ١٤٦
ـ تحليل مضمون الروايات ١٤٩
ـ الدليل على وجوب الاستبراء ١٥٤
● فى القرآن الكريم ....
● فى السنة ....
● رأى الفقهاء ....
ـ فتح خيبر ١٦٥
ـ معنى خيبر ، وبم كانت تتكون ؟ ١٦٨

ـــ المدة التى استغرقها فتح خيبر ١٧٢
ـــ مغزى وضع الرسول رداءه على صفية ١٧٥
ـــ المراجـــع ١٨١

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢

الجمع التصويري .. **غرافيكس** للتجهيزات الفنية ت : ٢١٢٩١٨٤

هذا الكتاب

يقال أن التاريخ يعيد نفسه ، ويقال أيضاً أنه لاجديد تحت الشمس وهذا الكتاب يؤكد أن كلا القولين صحيح ، على الأقل بالنسبة لنا نحن العرب ، فالمستوطنات اليهودية التى أقامها اليهود فى فلسطين والتى تدور بشأنها المفاوضات الآن بين العرب واليهود ، ليست بالمشكلة الجديدة ، فقد سبق لليهود أن أقاموا مثلها فى الجزيرة العربية قبل الإسلام وفعلوا بأهلها الأصليين من العرب مايفعلونه الآن بالفلسطينين .

وعندما ظهر الإسلام وهاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأقام بها الدولة الإسلامية ، تصدى له اليهود من مستوطناتهم فى قريظه والنضير وخيبر ووادى القرى ، وأخذوا يؤلبون القبائل العربية عليه ويحرضون المنافقين ويطعنون فى الإسلام ويكيدون للمسلمين فماذا فعل الرسول معهم ؟

هل صدّق تهديداتهم وخافهم أم حاربهم إلى أن أجلاهم وطهر البلاد منهم .

هذا هو الموضوع الذى يتناوله هذا الكتاب .

الناشر

الدار المصرية اللبنانية
طباعة • نشر • توزيع
١٦ شارع عبد الخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ فاكس ٣٩٠٩٦١٨ برقيا دار شادو ص.ب ٢٠٢٢ القاهرة
AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH
PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION
16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O. Box 2022 Cairo Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO